سميح القاسم

حسرة الزلزال

نثر

مؤسسة الأسوار - عكا



حسرة الزلزال

إهـــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ / سميح القاسم

دولة الكويت

سميح القاسم

حسرة الزلزال

نثـــر

مؤسسة الأسوار - عكا

منشورات مؤسسة الأسوار – عكا

الطبعة الأولى – ٢٠٠٠

الغلاف للفنانة ارينا كركبي

المطبعة العربية الحديثة – القدس – هاتف: ٦٢٧٢٥٦٤–٠٢

صاعقة تقول...حبق يصمت...

١٩٤٨، الصف الثاني، ثم الثالث الابتدائي، في مدرسة الرامة الحكومية للبنين، التلميذ سميح محمد قاسم محمد الحسين في التاسعة من العمر، سيعيش خمسين سنة أخرى، وسيحاول آنذاك أن يتذكر الوجوه والأحداث، المقاعد المدرسية والأصوات، لوح الطباشير وأوراق التقويم السنوي المتساقطة، كأنما تلقائيا، وبقوة جذب خارجة عن ارادته. سيحاول أن يتذكر ويستعيد قدر الإمكان... ويذكر اليوم، يذكر أن الطقس كان دافئاً، وكانت الشمس هناك دائما في متناول اليد. يذكر أزهاراً برية كبيرة وعشباً عميق الاخضرار، وهناك بالتأكيد أصص حبق على نافذة المنزل الشرقية.. وثمة مصطبة مفروشة بسجادة عجمية ضخمة، وديوان مديد لصق الحائط الشمالي.

على الديوان بُسط مزركشةٌ مستوردة من شرق الأردن، وفي مركز المضافة منقل دائري وأباريق قهوة نحاسية قديمة... خزانة شامية ضخمة ذات تاج خشبي مزخرف تجاور الحائط الغربي.. وهناك مكتبة في قنطرة داخل جدار الكلّين الجنوبي السميك... يدور في المكتبة حديث لا يسمعه أحد بين المتنبي وشوقي والجاحظ وابن المقفع وشكيب ارسلان وتوفيق الحكيم وعلي محمود طه وشبلي الاطرش ورشيد نخلة والمنفلوطي والعقاد وطه حسين وآخرين ممن كان لهم حضور بارز في أوساط المهتمّين بالثقافة آنذاك.

على الحائط الشمالي صور لبعض شيوخ العائلة.. أما الحائط القبلي فقد كان معرضا "لهواية الصيد التي يمارسها الوالد... كان هناك رأس وعل بقرنين طويلين معقوفين ورؤوس غزلان محنطة وضعت في محاجر عيونها بلورات تشبه الأحداق الحية، بحيث بدت أشبه بغزلان

مفعمة بالحياة تمدّ أعناقها عبر الجدران البيضاء السميكة. كان ذلك الطفل تلميذا مجتهدا ومهذباً تحرص أمه حرصاً شديداً على نظافته وترتيبه، مستعينة بأم فارس التي تعيش مع الأسرة كواحدة من أفرادها، وتقوم بوظيفة المربية والخادمة والجدة لقاء القوت والمأوى وأجر زهيد. وكم كان يحب أم فارس وحكاياتها المسائية، لا سيما في ليالي الشتاء، والتي ترويها بحذق وبحماس درامي، بلهجتها السورية المحببة.

إنه واحد من ست اخوات وستة اخوة، في أسرة لا تشكو عوزاً وبؤساً ولا تدعي القلق على مستقبل أبنائها، ويشيع فيها ومنها مناخ الأُلفة والمحبة والتكافل.

في ساعات الصباح بعد اصطفاف التلاميذ في ساحة المدرسة الروسية القديمة، يخرج هو وبعض زملائه من مختلف الصفوف الى المقدمة لينشدوا قبل الدوام أناشيدهم الوطنية، موطني، نحن الشباب، بلاد العرب اوطاني، يا علمي يا علم، يا ظلام السجن خيم، وغيرها من الأناشيد التي دربهم عليها المعلم سليم مدرب الجوقة المدرسية. آنذاك التقطت اذناه الصغيرتان، من حديث الكبار في الديوان اسماء موسى ديان وابن غريون وموسى شرتوك، وفهم أن اليهود يريدون احتلال فلسطين وطرد العرب منها. لم يدرك لماذا يريد اليهود أن يفعلوا ذلك ولم يكن قد رأى يهوديا لكنه أحس بأن اليهود شريرون دون أن يستشعر خوفا منهم. فكل من في الديوان ينعتهم بالجبن ويؤكد أن الجيوش العربية ستسحقهم سحقا. وشعر بطمأنينة خاصة حين سمع أحد الكبار وهو يتحدث عن مدفعين سريين عند الجيش اللبناني إسماهما "سفير جهنم" و "الغضب" وان الجيش اللبناني سيفاجيء اليهود بهذين المدفعين الساحقين الماحقين، وشعر بالسخط على اولئك من بين الكبار الذين كانوا يضحكون حين يذكر الجيش اللبناني وهم يسخرون:

هذا جيش " علبة العطارة " وهو مشغول بتسريح شعره وتلميعه بزيت الشعر. هذا جيش المرآة والمشط ولا مدافع ولا يحزنون.. كان يحزن ويضغط نفسه باتجاه تصديق حكاية المدفعين. وتعمقت ثقته بالنصر الأكيد على اليهود حين شاهد في الحارة الغربية قرب " عين الشيخ " المجاورة لمدرسته الابتدائية مصفحة يهودية مثقوبة بقذيفة، استولى عليها المقاتلون العرب وكتبوا عليها بالابيض " فرسان الدروز " وشعر بمزيد من الفخر لأن أباه وعمه وبعض شبان عائلته وثلاثة من أخواله (اثنان منهم، محمد وحمد قدما من سوريا) هم من " فرسان الدروز " ولم تمض سوى أيام معدودات حتى استضافت أسرته سبعة من جنود " جيش الانقاذ " حسب التعليمات الصادرة عن " المقدم عامر " قائد الجيش في بلدته الرامة. بعد العشاء دار الحديث بين الجنود وسكان البلدة. والده كان ضابطا برتبة كابتن (رئيس) في قوة حدود شرق الاردن وكان أمراً بدهياً أن يسأل أحد ضيوفه من جنود جيش الانقاذ: قل لي يا " سُمارة " كيف تميز بندقيتك من بندقية زميلك؟ وردّ سمارة بثقة: من القشاط (الحزام). وسأل الوالد: لكن ماذا يحدث يا سمارة اذا نحن استبدلنا الأحزمة؟ وارتبك سمارة قليلا وتخلص على الفور، شاخصا بكثير من البلاهة نحو بندقيته الفرنسية الطويلة متمتماً: يقولون عليها رقم! سأل الوالد! وما هو رقم بندقيتك يا سمارة؟ هنا لم يعد سمارة مستعدا للاستطراد فرد عاتبا: لا تصعّبها يا بوقاسم! لكن " بوقاسم " أصر على " تصعيبها "، ماذا جئت تفعل في فلسطين يا سمارة؟ ويرد سمارة ضاحكاً: والله في بالي ثلاث يا بوقاسم (فهم الطفل لاحقا أن المقصود هو ثلاث نساء يهوديات).

وتابع " بوقاسم " ولماذا ثلاث يا سمارة؟ الا تكفيك واحدة؟ ضحك الجميع، لكن سمارة طلع منها هذه المرة ايضا: ليش ثلاث؟ انا أقول لك.. واحدة تقعد من هين (مشيراً إلى جنبه الأيمن) وواحدة تقعد من هين

(مشيراً الى جنبه الأيسر) وواحدة ترعى البوش... (وفهم الطفل لاحقاً أن المقصود بالبوش هو القطيع)..

بعد أسبوع ربما، كان والده (بوقاسم حسب تعبير سماره) في عكا ليشارك في الدفاع عنها.. وقرب جامع الجزار شاهد شاحنة عسكرية مقلوبة وسمع شخصا ما يئن تحتها.. دعا بعض الشبان لمساعدته وحين رفعوا الشاحنة كان هناك " سمارة " وقد تحطمت ساقاه تحت حديد الشاحنة.

صاح والد طفلنا: أنت يا سمارة! ماذا أصابك؟ وآنذاك صرخ سمارة بلهجته البدوية: " دخلك يا بوقاسم طلِّعني من هون وسأُخلّي حوران مني وجاي ".. وطلعه بو قاسم الى جامع الجزار الذي تحول الى مستشفى... ثم مضى برفاقه المتطوعين الى خط المواجهة... ولم نسمع عن سمارة شيئا فيما بعد... واليوم ما زالت حسرة سمارة في قلب الطفل الذي كبر واصبح والد أطفال، يكبرون ويقتربون من سن سمارة، بأمل ألاّ يقتربوا من مصير سمارة.

بتواتر الأيام شعر الطفل المشدود الى زلزال جوارحه، بشيء من الاحباط وتذكر حوار والده وعمه يوم دخلت قوات جيش الانقاذ من الخط الشمالي (خط إيدن)المعروف اليوم باسم " شارع بيت جن " كانت الأسرة مجتمعة على بلكون العلية في المنزل القديم حين أطل رتل من السيارات. وكان عمه جالسا ايضا فهبّ قائلاً: ها انذا ذاهب لارتدي بدلتي العسكرية ولالتحق بالجيش. قال أبوه: لكن يا " نجيب " انت ايضا كنت ضابطا في قوة الحدود وتدرك أن دخول جيش الانقاذ بهذه الصورة يدل على نقص كبير في الوعي العسكري. كان عليهم أن يطلوا زجاج مصابيح سياراتهم ولو بالتراب الأحمر حتى لا يكونوا عرضة لطائرات اليهود.

لم يعبأ عمه " نجيب " بهذه الملاحظة وانطلق الى منزله المجاور وبعد

دقائق كان بكامل أُبَّهته العسكرية بانتظار الرتل العسكري القادم لانقاذ فلسطين من اليهود. وحين دخل الرتل الى الرامة توقف في مركز القرية ليصعد عمه نجيب الضابط برتبة كابتن (رئيس) الى السيارة الاولى متبادلاً التحية العسكرية مع الضابط الكبير الجالس بجانب السائق. وبعد إنتهاء الحرب واصل عمه الرحيل مع الجيش الى لبنان حيث حصل على رتبة رائد... وحيث بدأت حكاية اخرى مع العذاب.

بتعاقب الأيام لاحظ الطفل المسكون ببارود يشتعل ببطء، كثرة غياب والده عن المنزل، انه يسمع نداء من خارج البيت " يا ابو قاسم.. اليهود يهاجمون عكا... القوات العربية تطلب مساعدة من المتطوعين. ويحمل والده بندقيته الانجليزية وينطلق. ويركض الطفل بخوذة والده الحديدية خوفا عليه، ويهمس الوالد: لا حاجة يا بني لها. الكوفية والعقال يكفيان. عد الى والدتك واخوتك وابق معهم. ويتكرر النداء: اليهود يحاصرون البروة... اليهود يهجمون على الليات.. اليهود يكررون الهجوم على لوبية.. اليهود يضغطون على شفاعمرو.. وينطلق والده مع كل نداء، لكن ليعود مرهقاً كئيباً صامتاً الا من بضع تمتمات ساخطة: باعوها أولاد الكلب.. باعوها أولاد الكلب! كان لوالده صديق وجار اسمه بسام الخازن.. وكان بسام الخازن ايضا ضابطاً سابقا.. وبحكم الزمالة والجيرة والألفة نشأت بين الاسرتين صداقة عميقة.. لذلك فقد كان طبيعياً ان يحزن الطفل حزنا عميقاً حين أحضروا الى الرامة نعش بسام الخازن الذي قتلته الحرب بشكل ما، لا يعرفه حتى الآن... وما زال يذكر الى يومه هذا زحام الناس في الحارة وهم يحملون النعش الخشبي البني الفاتح عاليا، كأنما على رؤوس اصابعهم.. وأصبح الخطر اليهودي أكثر اقترابا في نفس الطفل القلق... وحين سمع أن اليهود اختطفوا ابن عمه " أديب " (المرحوم الدكتور اديب حسين، فيما بعد) في حيفا لسعت قلبه شرارة داكنة من غضب متراكم. وما فتيء هذا الغضب ان تحول الى

سخط صلب كالحقد. حين اعادوا خاله " سلمان " من أرض المعركة في هوشة والكساير قرب شفاعمرو وقد فقد احدى عينيه. اذن فهي حرب شخصية.. موغلة في التحام مباشر... هو من جهة.. والهاجاناه (القوات اليهودية) من جهة أخرى.. ولم يجد العزاء الكافي حين قالوا له أن شقيق موسى ديان قتل في تلك المعركة.. لا مقتل شقيق موسى ديان أو موسى ديان نفسه ولا مقتل أي شخص آخر يبرر لعقله البريء وقلبه الساذج هذا الاقتحام الدموي المفروض عليه شخصيا.. على أناشيده ووطنه وأبيه وابن عمه وخاله وجاره.. ولم يكن لدى طفلنا المحبط المأزوم سوى الحلم بمعجزة لم تتحقق. ذات مساء سمع هدير طائرة يقترب من فضاء قريته المشدود كطبل الكشافة.. ودوى على مقربة من البيت انفجار هائل.. واشتعلت القرية بالصياح والغبار والدخان.. وهرعت الى عقد العائلة نساء يحملن اطفالا على الخاصرات المزنرة بالهلع.. سمع رجلا يصيح: ادخلوا العقد فهو قادر على احتمال " قازانات " الطائرات.. هيّا جميعاً الى العقد.. وفي الزحام المعصوب بالرعب سمع زوجة عمه فريد (ام أديب) مقهقهة بصورة هستيرية، صرخت في وجهها أمه وخالته ونساء اخريات: ماذا اصابك يا شيخة.. اسكتي بحق الله. نتعرض للموت وتضحكين؟ماذا أصابك؟ وصاحت "ام حسين" لقد جُنّت شيخة، اضربوها على وجهها وستهدأ وضربوها على وجهها لكنها لم تهدأ بل انقلبت من الضحك الهستيري الى البكاء المرير.

ثلاثة أيام بلياليها لم نخلع ثيابنا واحذيتنا، استعداداً للحظة الهرب من اليهود.. احس بخوف استثنائي يتصاعد بين أقاربه... قال جده، لوالدته، الشيخ شحادة: العثرة علينا نحن فسينتقم منا اليهود شر انتقام. اما النصارى فلا خوف عليهم لان الانجليز يحمونهم بالتأكيد.. وبعد أعوام أصبح مهيئاً للإدراك بان الانجليز لا يعنيهم النصارى ولا يعنيهم السيد المسيح نفسه.. الذي يعنيهم حقا هو مصلحة امبراطوريتهم الموشكة

على الإنكماش والإنحسار الى شطآن الجزر البريطانية الباردة.. وفهم ان الانجليز مستعدون للتخلي عن المسيحيين العرب لصالح الدولة اليهودية المعدة لتكون قاعدة لتاج الأسد البريطاني الهرم.
وخوفا من تكرار القصف الجوي اليهودي فقد هرب الناس الى كروم الزيتون.. وهربت عائلته هو وعدد من مختلف العائلات والطوائف الى حقل زيتون كبير تملكه العائلة اسمه "خلة القصب" وتم اختيار "خلة القصب" هذه لأكثر من سبب "تكتيكي" فهي قريبة من البلدة وفيها واد كفيل باخفاء الناس عن عيون الطيارين المغيرين كما أن فيها نبع ماء يقيهم شر العطش... وفي خلة القصب كان طفلنا يتسلق اشجار الزيتون والتين واللوز مع أصدقائه وينشدون:
طيارة حرامية
تحت التوت مرمية
يا يهودي يا ابن الكلبْ
شو جابك ع بلاد الحربْ
وحين وصل غناؤهم آذان ذويهم فقد انتهروهم محذرين: كفى يا شياطين، كفى يا قرود.. انزلوا عن الشجر حتى لا تراكم الطائرات.. انزلوا واخرسوا..
ولم يتكرر القصف، وعاد الناس الى بيوتهم دون أن تعود اليهم طمأنينتهم الضائعة وبكارة حياتهم المغتصبة... لاشك في دقة ما يذكره طفلنا الى اليوم من أحداث عاشها. غير أنه لا يستطيع الجزم في مسألة تسلسل هذه الأحداث. وهو لا يذكر، مثلا، متى أرسل لهم جارهم وصديق العائلة الخوري يعقوب شاحنة لتقلهم الى بيروت. لكنه يذكر ان ذلك حدث في ساعات الصباح، اذ قدم رجل يتكلم باللهجة اللبنانية. طلب الوالد وقال له: الشاحنة جاهزة. ارسلني الخوري يعقوب من أجلكم. حمّلوا ما تريدون وسترحلون معا الى لبنان، الخوري يقول لكم

لا تقلقوا فهو سيدبر امركم في لبنان، وتذكر طفلنا ابن عم والده، المحامي (المرحوم المحامي علي حسين الاسعد) الذي قدم من دمشق، وبعد الغداء اجتمع الاقارب في ديوان العائلة.
كان الجميع ينظرون باعجاب شديد الى قريبهم المحامي المهيب الذي يتكلم الفصحى بطلاقة ويعرض على أهله آل حسين الرحيل معه الى سوريا، ولن ينسى دعابة عمه المحامي المتحمس والمعتد بنفسه: بكم، استطيع ان احكم سوريا! وبعد نقاش لم يكن هادئا دائما قررت الأغلبية الانتظار وعدم التسرع بالرحيل.. كيف نترك بيوتنا وأملاكنا لليهود ونرحل هكذا ببساطة؟ (كرر أكثر من متكلم هذا السؤال) وقال أحدهم، لعله الشيخ حسين العلي، والد المحامي: انا أعرف الغربة.. الغربة مذلة.. وأقول لكم، الموت في الوطن ولا الحياة في الغربة.. نموت هنا أو نعيش هنا.. الا تؤمنون بالله؟ ولانهم "يؤمنون بالله" فقد أقروا رأيه وعاد عمنا المحامي الى دمشق ليموت فيها في العام ١٩٧٥ كما قيل لاحقا.
وعادت شاحنة جارنا الخوري خاوية الا من سائقها. ويذكر الطفل كيف انه أوشك على حمل طاولة خشبية صغيرة مطعمة بالصدف وأسلاك الفضة الى شاحنة الخوري فقد أحب هذه الطاولة ولم يشأ التخلي عنها لليهود... وما كان ليتخلى عن رأس الوعل ورؤوس الغزلان المحنطة... سيطلب من أشقائه الكبار سلَّماً وسيتأكد بنفسه من أنها جميعا بقرونها وعيونها البلورية ضمنت مكانها على متن شاحنة الرحيل...
كيف يستطيع النسيان؟ وهل يريد النسيان؟ لا، لا بد من صيانة الذاكرة حية متماسكة صاحية، فلا مكان للغفران، ولا مبرر للتسامح مع كل هذا القدر من القسوة وهذا الاجتياح الرهيب وغير المبرر لطفولته التي لم تكره أحدا ولم تعتد على أحد، حتى انها لم تتحمس لقضبان الدبق وفخاخ العصافير. كيف يستطيع نسيان وجوه الجنود العرب الهاربين جريا على الأقدام نحو الشمال بينما يهرب الضباط في سيارات الجيب

ويقذفون رتبهم ميمنة وميسرة خوف الوقوع في الأسر. كيف ينسى ذلك الجندي البائس الذي كان هارباً والمياه تطرطش ساقيه من المطره (الزمزمية) التي نسي اغلاقها. كيف ينسى صراخ أمه نحو ذلك الجندي: يا مشحَر سكِّر المطرة وإلاّ متّ عطشا!!

وكان في الهاربين مع زملائهم الجنود اثنان من أبناء عم والدته هما حمد ومحمد، كان حمد مرحا كثير الدعابة. اما محمد فقد كان صارماً ضجراً.. وبعد خمسين عاما كبر طفلنا وقُدّر له أن يزور سوريا وأن يزور جبل العرب ايضا... وهناك لاحظ شيخا يشق زحام المستقبلين ويهرع نحوه مهرولاً.. ها هو يمسك بيده ويحدق في عينيه... الا تذكرني؟ أنا خالك حمد... لا اله الا الله.. تغرورق عيناه بما يتجاوز الدمع ويسأل بحرقة: وأين خالي محمد؟ هل أصابه مكروه؟ لا انه ما زال حيا لكنه يقيم في قرية بعيدة ولم يعلم بقدومك مع الوفد... سلم لي عليه.. سلم لي على كل الأقارب.. وتفترق الايدي التزاماً ببرنامج الوفد... ويستمر برنامج الوفد... ويستمر برنامج النكبة... ويستمر برنامج الحلم الحار كالدموع والدم.

قبل دخول الهاجاناه الى الرامة بيوم واحد.. وقبل غروب الشمس بقليل قدم الى منزل طفلنا رجل طويل نحيل يرتدي قمبازاً داكنا وكوفية سوداء دون عقال، سأل عن الوالد، تبادلا بضع كلمات وصعدا الى العلية وحدهما، بعد دقائق غادر الرجل الغريب بقمبازه الداكن وكوفيته السوداء وطلب الوالد من أبنائه الكبار أن يستدعوا على الفور شخصين هما وجيها عائلتين قريبتين. وحضر العم أبو هايل سلمان والعم ابو فراج صالح.. وعلم الطفل لاحقا ان الرجل الغامض الغريب كان رسولاً من بعض الوجهاء الدروز من منطقة الساحل جاء ليخبر دروز الرامة انه تم الاتفاق على الهدنة مع اليهود مقابل السماح للدروز بالبقاء في البلاد. وتكررت العبارات الساخطة: باعوها.. زعماء العرب، باعوا

فلسطين لليهود وتخلوا عنا.. ماذا نستطيع ان نفعل بعد الآن سوى تدبير أمر البقاء في الوطن.. لينتقم الله منهم... الكلاب الخونة، واحتج الطفل بصمت احتج في دخيلة نفسه التعيسة: خالي محمد وخالي حمد وسمارة وكل العسكر، حتى اولئك الذين كان شعرهم طويلا مثل شعر النساء والذين شاهدتهم يغسلون شعرهم الطويل في ساحة البلد ويعقدونه جدائل، هؤلاء الجنود لم يكونوا خونة، ولم يبيعوا فلسطين.. اما الزعماء الذين يقال إنهم باعوا فلسطين فلا أعرفهم، لكنني غير مقتنع بانهم باعوها، فما داموا زعماء فهذا يعني أن لديهم الكثير من النقود... لماذا اذن يبيعون فلسطين؟ لا.. هذا غير ممكن غير صحيح، لا يعقل ان يفعلوا ذلك ولا بد من خطأ في الأمر. من يدري، قد تتضح الأشياء في المستقبل.. من يدري؟

صبيحة اليوم التالي دخل اليهود قرية الرامة بآلياتهم ومشاتهم واسلحتهم الاوتوماتيكية المصوبة نحو الناس... أمروا رجال البلد من خلال مكبرات الصوت بالتجمع في الساحة الشرقية.. وتجمهر الناس.. وقدم الجد الشيخ شحادة الى منزل الطفل غاضباً.. أوقف اليهود "سلمان" في الشارع وسلبوه ساعته الذهبية، الا يكفيهم انهم سلبوه عينه؟ وشعر الطفل الحزين بالمهانة، لكنه لم يقل شيئا، رثى لجده بصمت، ودوامات معتمة من غضب لا يحيق بأبعاده ومعانيه تمور بلا انقطاع في أعماقه المصعوقة.

تجمع رجال القرية في الساحة الشرقية وأعلنت قوات الإحتلال حالة حظر التجول وباشرت عمليات التفتيش... وقدم بضعة جنود فهم من اشاراتهم انهم ينوون التفتيش. وحين فتحوا الخزانة الشامية الكبيرة امتدت يد أحدهم الى بزّة رب الاسرة العسكرية... وهنا صاحت الأم مثل نمرة: أبعد يدك عن بدلة زوجي... أنتم عصابة أم جيش؟ لو كنت جنديا حقيقيا لما اعتديت على شرف ضابط.

ويبدو أن الجندي ذعر قليلا فتراجع تاركا البزة العسكرية معلقة في الخزانة. وكلمه جندي آخر بالعبرية، فتراجع خطوة الى الوراء وأدى التحية العسكرية للبزة. وقبل أن ينصرفوا رسموا دائرة باللون الازرق على الباب الخارجي وكتبوا في داخلها كلمة عبرية. (رغم تجديد طلاء الباب فقد حافظنا عليها وعلى الدائرة المحيطة بها لسنوات، حتى تعلمنا اللغة العبرية وادركنا ان هذه الكلمة تعني انه تم التفتيش).

فور انصراف الجنود عاد الرجال الى بيوتهم واخبروا اسرهم ان اليهود أمروا معظم المسيحيين بالرحيل وسمحوا للدروز ولبضع عائلات مسيحية بالبقاء.. وحين رأى الرجال شارة التفتيش حَملوا الأطفال دلاء ماء ذوبوا فيها مكعبات صبغة النيلة التي كانت تستعمل لغسيل الثياب وأمروا أبناءهم بالتسلل عبر حظر التجول الى بيوت المسيحيين ليرسموا عليها الدوائر الزرقاء ويقلدوا الكلمة المجهولة لحماية هذه البيوت ريثما يعود أصحابها. وانطلق الاطفال في مهمتهم "العسكرية" لائذين بالزوايا والسلاسل الحجرية من عيون العسكر المدججين بالسلاح. وشعر طفلنا بشيء من الإعتزاز وهو ينتقل مع اشقائه واقربائه الاطفال من بيت الى بيت للقيام بالمهمة على أكمل وجه.

وبينما كان بعض الجيران المسيحيين يرحلون باتجاه الشمال رأت ربة الأسرة من النافذة جارتها كاملة أم الياس سائرة بتثاقل وببطء فنادت عليها وأدخلتها البيت، وقال لها الوالد:إبقي معنا وإذا سألك اليهود من أنت قولي إنك أختي... إسمك من هذه اللحظة كاملة قاسم حسين لا كاملة شحوك، أفهمت؟ إحذري الخطأ.

وما إن خرج من خرج من القرية حتى تدفق الجنود بعدة شاحنات وراحوا يطلقون النار على أقفال البيوت والدكاكين وينهبونها.. وعبر نافذة البيت الشرقية شاهدناهم يحملون مرطبانات اللبنة والثياب والأواني من بيت عائلة حداد القريب.. وحين اقتربوا من بيت عائلة

شحوك راحت العمة كاملة تلطم وتبكي: انهم يقتحمون بيتنا وينهبونه وقد يهتدون الى أواني النحاس التي خبأتها في البئر!.. لم يأخذ جماعتنا شيئاً معهم.. وأمسكت الوالدة بذراع العمة كاملة مهدئة من روعها: كفى يا أم الياس... المهم أننا ما زلنا على قيد الحياة وما بقي لنا فهو لنا ولكم... وسيعود زوجك واولادك.. سيعود الجميع والله كريم وسيعوضنا عن كل شيء، في المال ولا في الرجال يا أم الياس!

كانت العائلة قد لفت البندقية الانجليزية وبندقية صيد ومسدساً من عيار ١٤ بكيس من الخيش، ولفت كيس الخيش بكيس من مادة تشبه النايلون وخبأت "الكنز" في حاكورة الشيخ حسين القريبة، ليوم الحاجة، لكن سرعان ما أعلن اليهود أنهم يملكون آلة تكتشف المعادن وسيهدمون كل بيت يعثرون بقربه على سلاح مخبأ. وآنذاك كان لابد من اخراج "الكنز" الدفين في التراب الاحمر الخصب، وتسليمه لعسكر اليهود.

وطلب والد طفلنا وقريباه أبو فرّاج وأبو هايل الاجتماع الى قائد اليهود فأخذهم العسكر اليه. قالوا له مستعطفين: لقد عشنا في هذا البلد منذ مئات السنين شعباً واحداً وأسرة واحدة لا فرق فيها بين درزي ومسيحي ونرجوك يا حضرة القائد أن تسمح لاخواننا المسيحيين بالعودة، ان ضمائرنا لا تقبل هذا الوضع، فإما أن نبقى معاً أو نرحل معاً. وإذا سمحت لنا بالذهاب الى بعض اقاربنا في بيت جن والبقيعة فقد نتمكن من ترتيب الأمر من خلالهم مع السلطات العليا.

قال الضابط: أنا أنفذ الأوامر، وعلى أية حال فانني أسمح لكم بالمحاولة. وتم الإتصال بالشيخ كامل علي يوسف الأسعد من بيت جن والضابط السابق يوسف بك علي من البقيعة فرحبا بالفكرة وأجريا اتصالات مستعجلة أثمرت السماح لمسيحيي الرامة الذين استقروا في بيت جن والبقيعة وسواهما من القرى المجاورة، بالعودة الى الرامة.

عاد الجيران المسيحيون ليجدوا أبوابهم محطمة وبيوتهم منهوبة ولم تتردد سياسة "فرق تسد" لحظة واحدة وسرعان ما انتشرت الاشاعة بان الدروز هم الذين نهبوا بيوت جيرانهم، غير أن العمة كاملة والعائلات المسيحية التي لم تغادر القرية عرفت كيف ترد على الأكذوبة الحقيرة... وكان بعض الفقراء من الدروز والمسيحيين الذين لم يغادروا القرية قد لموا بعض الأدوات التي ألقاها الجيش في الشارع لانه لا يحتاجها، ومع عودة أصحابها فقد أعادوها لهم كاملة غير منقوصة... وانطفأت الاكذوبة وانهارت لتتجدد من بعدها حياة أبناء الشعب الواحد، الى أن تعثر سياسة "فرق تسد" على صدوع أخرى تتسرب عبرها.

ومرة أخرى يقدم أهل الرامة دليلاً جديدا على أنهم يتقنون فن الوحدة ويجيدون العمل المشترك فلم تمض على إحتلال الرامة سوى اربع سنوات مثقلة بالحكم العسكري الغاشم والصارم، حتى انفجرت في الساحة الشرقية نفسها أول انتفاضة شعبية بعد النكبة.. انتفاضة "الزيت والزيتون" حين تصدى اهل الرامة، مسيحيين ودروزاً، نساء ورجالا وأطفالا، لقوات الشرطة والجيش التي داهمت القرية في العام ١٩٥٢ (بقدر ما تسعف الذاكرة) لمصادرة موسم الزيت والزيتون لصالح "الدولة" واحتشد الراميون وتصدوا لقوات المصادرة ببسالة ووقع الجرحى والأسرى من رجال الرامة وشبانها واختلط الدم "المسيحي" بالدم "الدرزي" وربطت الكلبشات ساعداً "درزيا" بساعد "مسيحي" وتصاعدت صيحة عنقاء الرماد العربية بلغة عربية فصحى: نحن هنا!

ودوّت صيحة الطفل الذي لم يعد طفلا.. الطفل الذي فقد طفولته ولم يفقدها.. دوت صيحته من حنجرة لخصت كل الحناجر: نحن هنا! نحن هنا! نحن هنا! طمئنونا عنكم بواسطة الاذاعة.. طمئنونا عنكم بواسطة الانتفاضة!

شجرةٌ... لا بأس

أخي محمود،

يريدونني أن أكتب عنك، وكما عهدتني، فلا أستطيع أن أرفض لهم طلباً، لأنهم يحبونك، إذن فها أنذا أكتب عني. وبعبارة أخرى فإنني أكتب عنك، لأنني أحبهم. أما إن كنتُ أحبك أو كنتَ تحبني، فتلك مسألة حَسَمَتها "لقمة" الكبّة التي أتقنتها أمنا الراحلة، أمّ قاسم، ورغيف الخبز الذي أتقنته أمنا الذاوية كشجرة مرهقة، أم أحمد.

ولأعترف أولاً، بأن قاموس حياتنا وحياة لغتنا كرّسا ثنائيات في الكلام وفي المكابدة، شأنها أن تخلق توازناً ما، قد نفهمه وقد لا نفّهمه، لكنه يظل حقيقةً موضوعيةً في موازاة الذوات الجامحة الطامحة أبداً إلى الوحدانية والتفرد، ولهذه الحقيقة أن ترضينا أو تغضبنا، على مزاجها وهواها!

ثمة ثنائية في القضاء والقدر والليل والنهار والحياة والموت ومحمود وسميح، إذا كان محمود قضاءً فلا فكاك لسميح من أن يكون قدراً.. وهكذا سميح الليل ومحمود النهار.. ومحمود الحياة وسميح الموت.. ويريدونني أن أكتب عنك لأنهم ألفوا هم أيضاً ثنائياتهم ويريدونك أن تكتب عنك، لذلك طرقوا باب قلبي برفق وهمسوا بكل ما فيهم من نقاء الحب وطُهر الحرقة ووداعة الألم الإنساني: اكتب لنا عن محمود.

وأعرف إلى أين أنتهي لكنني لا أعرف من أين أبدأ، هل أبدأ من أماسي الرامة، في عليّة الدار القديمة ولفيف الشبان الحالمين بوطن في قصيدة؟ هل أبدأ بالطائر الغريب الذي سميناه "تأبّط شعراً" ولم نقبل بانضمامه إلينا إلا لنقنع أنفسنا، كما يبدو، بتفوقنا؟ هل أبدأ بتلك الصبية الجميلة

التي ألهمتك " ملحمتك " الأولى " عروس جبل حيدر " واستدرجتني إلى " ملحمتي " الأولى " بلبل دير الأسد " ؟ (بالمناسبة: فقد احتفظت تلك الصبية الجميلة بخط يدك أربعين عاماً!!) وهل أبدأ من نهارات حيفا القاحلة ولياليها المثقلة بالثمر؟ أم من جريدة "الاتحاد" ومجلة "الجديد" وبطاقاتنا الحزبية القلقة؟ أم من جنون الأعمى الذي يقوده أخوهُ في شارع الأنبياء؟ أم من تحطيم الزجاجات الفارغة على أرصفة الليل الثمل بالحزن والضياع؟ أم من تظاهراتنا المشتركة، وسجوننا المشتركة، ومعتقلاتنا المشتركة، وحبنا المشترك، وجوعنا المشترك، وبكائنا المرير الطويل على صدر الله الرحمن الرحيم، وفي أحضان الكرمل البارد المغترب بلا نهاية؟

من أين؟ من أين أبدأ؟ هل أبدأ من رحيلك المفاجىء ووحدتي المفاجئة، وسخطي عليك لحزني عليَّ وخوفي عليك؟ وهل أبدأ من لقائنا المفاجىء في "منيابوليس" النائية القاسية بعد ثمانية أعوام من هجرة في الخارج وهجرة في الداخل؟

لا، لا أعرف من أين أبدأ، لكنني أعرف إلى أين أنتهي، أعرف كيف اكتشفنا فجأةً أننا كبرنا.. كبرنا كثيراً.. كبرنا بشكل غير لائق على الإطلاق، فما زالت في مكتباتنا كتب لم نقرأها بعد، وما زالت في جراحنا دماء لم ننزفها بعد، وما زالت في أرواحنا كلمات لم نَصُغْ فضاءها بعد، وما زالت في هواجسنا قصائد لم نقلها بعد.. وانظر من حولك، انظر يا محمود يا أخي وحبيبي، كم من العيون الجميلة تتفتح في بساتين الصبوات، وكم من سهول في وطننا لم يرحل عنها الدخان بعد. وكم من جبال في بلادنا تبدع لأجلنا، ولأجلنا فقط، زهورها البرية المتمردة على الجرافات الغريبة.. وانظر من حولك، كم من الأطفال الجدد في باحة البيت القديم، لا يريدون أبوَّتنا بقدر ما يريدون قصيدتنا، وها نحن نحاول أن نعترف بأننا كبرنا، بيد أن شقاوة الطفولة تدوس بقدميها

الحافيتين تجاعيد الكهولة وتتركها أسطوانة مشروخة تدور على نفسها بلا أمل، إزاء هذا العناد الطفولي الجامح، مُهراً على سفوح وطن ينتظر فينا وننتظر فيه.

أُشيعَ ذات يوم أنك بلغتَ الخمسين. هل انقضت سبعة أعوام عجاف على تلك الإشاعة المغرضة؟ لا أعلم. لكنني أذكر أن أخاك " الرَّبذَيّ " خاطبك من جُبِّ منفاه الاختياري آنذاك، ليشدَّ أزرك وليلخِّص معك سيرة سربٍ من الطيور المهاجرة، تقلّبُهُ الرياح والعواصف والمناخات، فلا يعود إلى مُوطنه الأوليّ إلا وقد نثرت تقاويم الطبيعة والطبائع ريش أمواته على مخاضات هذا الكوكب، كوكبنا الأرضيّ الضيّق الشاسع.. هل كان أخوك " الرَّبذيّ " محقاً حين قال آنذاك:

على وَرَق السنديانْ
ولُدنا صبَاحاً
لأُمٍّ ندى وأبٍ زعفرانْ
**
ومتنا مساءً
بلا أبوين
على بحرِ غربتنا
في زوارقَ من ورق السيلوفانْ
**
على ورق البحرِ،
ليلاً،
كتبنا نشيدَ الغرقْ
وَعُدنا احترقنا بنارِ مطالعنا
والنشيدُ احترقْ
بنارِ مدامعنا

**

والورقْ

يطير بأجنحةٍ من دخانْ

**

وها نحن يا صاحبي،

صفحتانْ،

ووجهٌ قديمٌ يُقلِّبنا من جديد

على صفحات كتابِ القَلَقْ

وها نحنُ. لا نَحنُ

مَيْتٌ وحيٌّ

وحي ومَيْتْ

"بكى صاحبي"

على سطح غربته مستغيثاً

"بكى صاحبي"

وبكى، وبكيتْ

على سطحِ بيتْ..

**

ألا ليتِ ... ليتْ

ويا ليتِ.. ليتْ

ولدنا ومتنا على ورق السنديانْ..

والآن ماذا تبقَّى لنا لنقوله للسنديان؟ من ناحيتي، فإنني أعترف لك بأنني بتُّ أخجل من النظر في عيون الزيتون والصبّار والسنديان. وأنت تدرك سرَّ خجلي بمثل ما أدرك أنك تصغرني سناً بأيام كثيرة، نضيف إليها سبعة أعوام وسبعة أيام وسبع دقائق، كنت حدثتك عنها في باريس بعد مغادرتك المستشفى. هذا يعني أنك ما زلت تملك متسعاً من الوقت

قبل الانخراط في خجل أخيك المقيم في بركانٍ جوفيٍّ يوشك على الانفجار في أية لحظة قادمة..

وها نحن، يا أخي العزيز عليَّ كَنفسي لا أكثر، نبحث في العتمة عن أقلامنا لندوِّن مطلعاً نخشى ضياعه، فتصطدم أصابعنا المرهقة المرهفة بزجاجات الدواء وعلب المسكِّنات.. ها نحن يدفع أحدنا عن نفسه إلى أخيه همَّ العبارة إيّاها.. "أن تقول رثائي.." لكننا نتشبّث بأشلاء تفاؤلنا وشظايا حلمنا، بطموحنا الذي قد يكون مبرراً، لأن نصبح فيما بعد، شجرةً يفيءُ إلى ظلها التلاميذ وطيور الفجر والعشّاق وعابرو السبيل من فلاحين وعمال وآباء وأمهات.. شجرةً مؤهلةً للاكتفاء بالثمر إذا أتيح لها وبالخضرة الأليفةً.. شجرةً يباركها الوطن ويصونها الشعب ويرعاها الله.. شجرةً، يا أخي.. شجرةً، ولا بأس، لا بأس.

أخوك سميح

(افتتاحية مجلة الشعراء -أيار ٩٩- العدد الخاص عن محمود درويش)

مونولوج للحدث.. بروفة للقيامة..

بيتُنا اشتاقَ، فارجعي يا أميرهْ
غبت ما غبت، والحياةُ قصيرهْ
أذكرَي الله وَآذكُرينا، وعودي
بقليل من الأماني الأخيرهْ
واحدٌ بيتُنا. وحيدٌ. ولكنَّ دروبَ الدنيا إليه كثيرهْ..

ليعذر الفرح الرصين دموع حزني الطائشة، ولتغفر لي مطبات التاريخ ومنعطفاته المفخخة صراط دمي المستقيم، أنا المواطن العربي (مع وقف التنفيذ) سميح بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسين المعروف لاحقا بالشاعر سميح القاسم، والمقيم باذن الله في جوار قبور اجدادي المنثورة على جبال الجليل، نجوما معتمة، منذ تسعة قرون، أعلن على العالم سعادة جراحي غير القابلة للالتئام.

آمنت، وآمنت. وها أنذا أجري في يوم غزة وأريحا بروفة للعرض الكبير في يوم القيامة.

آمنت.. آمنت.. يحدث ما يحدث وإنني لأكفكف دموعي حتى أتمكن من مشاهدة علمي القومي متسلقاً سارية في وطني، وإلى أن أستقر على نشيد وطنيَ فسأستعير دقات قلبي وضجيج العالم.

وليعذُر الفرح الرصين دموع حزني الطائشة، وليغفر لي أولئك الذين اتهموا شعبي ذات يوم بأنه "باع وطنه لليهود" لأنني أجد صعوبة قصوى في الغفران لكل هذا القدر من التعذيب الساديَ، علما بأنه أصبح بمقدوري أن أطلب الحق في دحض التهمة واسترداد انسانيتي وكتابة الصيغة الحقيقية لتاريخي الخاص بمعزل عن المقومات المعمول بها

للأحتواء والأنابة والتجيير، مدججاً بصياد سمك من غزة ونخلة وشجرة برتقال من أريحا..

آمنت آمنت. هيذي خيوط من الدم تصبح شالاً لصبية وعلماً لشعب.. هيذى أعشاب الخنادق وزهور الأضرحة تضفر أكاليل نصر لمقاتلين يتجددون في رمقهم الأخير، يدوسون الموت بالموت ويقهرون الموت بالحياة، حتى يتضح الفارق بين قميص النوم والبزة العسكرية!

آمنت. آمنت، وانني لمستعيذ بالله من ألمي. مستعين بألمي على غبطتي. مغتبط أنا مبتهج في هذه الأيام، حد البكاء القاتل، أرفع أنخابى المفعمة بالصودا الكاوية وجمر الدموع، وأهتف بجمّاع القلب: في صحتك أيها العالم، فقد وهبتني حكماً ذاتياً وشرطة قوية!

سيصبح بمقدورى أن أنشىء مقبرة جديدة للشهداء وضحايا تلوث البيئة وراحلى الأجل المحتوم.. بمستطاعى الآن ان أحصى القتلى ومشوهى الحرب والأسرى والمحاربين العائدين في آلة الزمن من العام ١٩٤٨ الى العام١٩٩٣، وقد يتاح لي ان أمسك بأيدى أطفالي في طريق الصباح الى مدارسهم النظيفة.

قبل عامين، بقدر ما تسعفني ذاكرتي المتآمرة عليّ هي الأخرى، خاطبت حشداً من أشقائي التوانسة في عاصمتهم الجميلة قائلا: قريبا أيها الأخوة وقريبا جدا سيقول الشعب الفلسطيني العائد الى وطنه: خلف الله عليكم يا توانسة.. خلف الله عليكم يا مصاروة.. كثرالله خيركم يا اهل الكويت وسوريا ولبنان والأردن.. نسأل الله أن يقدرنا على مكافأتكم يا أشقاءنا العرب في كل مكان ويا أصدقاءنا من شعوب الأرض قاطبة. سنعود منتصبي القامات مرفوعي الهامات.. وسنعود على حمالات الجرحى وكراسي المقعدين.. سنعود في التوابيت وفي السيارات الفاخرة والطائرات النفاثة.. سنعود سيراً على الأقدام وزحفاً على مرافق أيدينا الدامية وقلوبنا الهالكة أسى وحنينا واحتراقاً.. سنعود

الى الوطن.. الى ما ظل من الوطن.. إلى شيء من الوطن لنرمم ما تهدم ولنشيد ما لم يسعفنا الوقت في تشييده.. سنعود لبناء مدينة الملاهي لأطفالنا المحرومين والمستشفيات لمرضانا الذين أعيى داؤهم نطاسيي العالم طيلة خمسة عقود من الزمن.. ولن يكون لدينا متسع من الأرض فسنقدم حدائق بيوتنا وما تبقى من بياراتنا وكروم زيتوننا ونخيلنا للمشاريع الوطنية العامة.. ولن ننسى ضيوفنا السياح فسنهيىء لهم ما يليق بأحلامهم من مراتع الأنس ومرابع الفرح ومواقع الاستجمام.. سنعتصر التاريخ قطرة قطرة من آثار اجدادنا الكنعانيين الى اخواننا المماليك والعثمانيين الى ضيوفنا غير المرغوب فيهم من رومانيين ويونانيين وصليبيين ومغول وتتار وسلاجقة وانجليز.. سنعتصر التاريخ سنتاً سنتاً لنوفر لحطامنا وركامنا ما تيسر من دولارات وبترو دولارات.. ولن نقصر في واجب الباوند والمارك والفرنك والين والروبل والجنيه والليرة والدينار والريال.. ولا يفوتنا ذكر جارنا الشيكل ذي الحول والطول والباع والذراع...

واذا كانت الحرية هي لون الانسان.. كما يزعم أندريه بريتون ذو اللون الحر الواضح– فسنرضى بلوننا المنقوص الشاحب الخفر المتلجلج..

وإذا كانت "العدالة هي الحقيقة في التطبيق" – كما يزعم الأفّاق اللامع ديزرائيلي– فسنكتفي بقدر متواضع من العدالة، ذلك أن العدالة الكاملة غير واردة بالحسبان في قضيتنا حتى لو أعيدت إلينا بلادنا كلها.. ولا نخفي عن أحد احساسنا بالمهانة حين يكلمنا العالم عن "السلام العادل والشامل".. أيتها السيدات، أيها السادة، ما من سلام عادل في قضيتنا.. حسبنا السلام ودعوا العدالة في قواميسكم.. فماذا نستطيع أن نفعل بهذه "العدالة" الفخمة الرصينة المثقفة المهذبة إزاء عذابات نصف قرن وويلات القتل والدمار والتشريد والأغتصاب والأذلال والانتثار القسري على جهات الكون، حتى لكأن العرب الفلسطينيين اخترعوا

جهات جديدة لم يألفها بنو البشر من قبل!

أيها السادة المندوبون في هيئة الأمم المتحدة، سادتي أعضاء مجلس الأمن.. سيدي المستر " ڤيتو " . أنا راض بقسمتي الضيزى هذه.. راض بالامتثال لانذاركم النهائي.. على ان تعفوني لو سمحتم من مهمة القناعة الصعبة. إنني لقابل بما فيه، غير أنني عاجز عن التسليم ببدعة العدالة السادية هذه . فبأي وجه أقابل أناشيدي ومراثيّ؟ ماذا اقول لمزامير جسدي وروحي؟ ماذا أقول لانتفاضة دمي الساخط؟ على أية حال فتلك معضلتي الخاصة التي سترافقني الى مثواي الأخير (أصبح متاحا بفضلكم.. شكراً.. شكراً جزيلاً).

وإذا بقي لديكم شيء من الوقت فاقرءوا معي، رجاءً.. هذه الآية الكريمة من "سورة الشعراء" : " قال إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون " تعرفون القائل وتعرفون الرسول فهل تعرفون المرادف المعاصر للعبرة الواردة في هذه الآية؟ وهل تدركون مدى الجنون القائم في دورة العذاب العربي الفلسطيني كل هذه العقود من الزمن لا لشيء سوى ما هو كائن الآن وما سيكون في المستقبل المنظور؟! هل كان من حق العالم أن يتهمنا بالجنون والأرهاب والهمجية لاقترافنا إثم الايمان برسالة الحرية وحق تقرير المصير بما هو كائن لنا صائر لغيرنا؟

لا بأس، لا بأس، فها نحن هنا، على هذه الصخرة نبني دولتنا، وفي هذه الدولة يتسنى لنا إمكان الموضوعية الفكرية والخيار الحر في ان نحب مبغضينا وأن نبارك لاعنينا، ويتأتى لنا ملاذ من الشماتة.. ويصبح من شأننا التصريح بلا تردد وبلا هوادة:

نحن الآن شعب سعيد الى اقصى حدود التعاسة.. نحن اليوم حمل الأرض الوديع، وحسبنا ذئاب ذكرياتنا الشرسة.. شكراً لاصغائكم..

مجلة "المصور" – القاهرة
١٧-٩-٩٣

وقار الطفولة... شقاوة الكهولة!

لسنا مطالبين بما يتجاوز طاقتنا، حتى نتمكن من الإعتراف بأننا نباغت الزمن أحياناً بما ليس منه، أوله، أو فيه، وقد نجد لسلوكنا هذا مبرراً، برغبة المرء الطبيعية والمشروعة في تجنب الإحراج واستدراج الحقيقة بلا ضحايا.

من ذلك، مثلا، إدماننا الحديث عن شقاوة الطفولة ووقار الكهولة، علماً بأن الوقار والجدية والصرامة هي أصلاً من سمات الطفولة بتعبيرها المباشر والواضح والعفوي... أما الشقاوة والالتفاف والخبث والتمويه فهي من مقومات الكهولة ذات التجربة العريضة والعميقة والقوة المكتسبة في سبيل البقاء والتدبر.

بيد أن الترتيب المريح الذي وضعناه لأنفسنا في مرحلة الكهولة، هذا الترتيب الذي حظي بإجماع نادر المثال، يتيح لنا إزاحة بعض تبعات الكهولة الى ساحات طفولة لم تكن على بَيِّنَة من التآمر والتخطيط والبرمجة، للفكاك من المآزق والتملُّص من مطبات الحياة وجيوب فضائها الأخلاقي.

ولاشك في أن الكهولة، بحكم موقعها المنيع المتمكن والمحنك، تُسقط على الطفولة من المفاهيم والمقاييس والمعايير ما لم يكن في حسبانها قط. وهذه الكهولة –كهولتنا– تفعل ما تفعله منعاً للإحراج –كما أسلفت– ودفعاً لتهم يجوز تمريرها (وغفرانها) بنسبتها الى الطفولة، أما إذا هي التصقت بالكهولة فإنها تستدعي المحاكمة على مستوى المسؤوليات، والعقاب المنسجم مع حجم المعرفة المفترضة والخبْرة المتراكمة والوعي الناضج والالتزام الأخلاقي.

لا أقول ذلك من أجل طفولتي الخاصة، بل من أجل الطفولات كلها، فثمة ضيمٌ لابد من رفعه، وأبدأ بنفسي، مستعيداً بعض الملامح من طفولة سكبوا على وجهها الصودا الكاوية، او ما نسميه في حياتنا اليومية بماء النار.

كما تعلمون، فإن معظم الشعراء والفنانين والأدباء وكثيرين من السياسيين ورجال الدولة أيضا، يستمرئون استحضار فائض من البؤس حين يتحدثون عن طفولتهم وذلك لأحد أمرين أولهما معاً:

١- استجداء العطف واستحلاب التأييد لما هو صائر في الكهولة، بتوظيف مؤثرات الطفولة المعروفة بقوتها.

٢- تبرير بعض القصورات والسقطات وإلصاق جريرتها بطفولة لا تستطيع الدفاع عن نفسها بعد كل هذا الزمن، وعند مثل هذا القاضي المنحاز وغير المنصف إطلاقاً.

وعلى سبيل المثال فقد يَلْغو أحدهم بلا توقف عن قدميه الحافيتين في أزقة القرية وحاراتها. وهو يفعل ذلك ببكائية تقطع نياط القلوب -كما يقولون- علماً بأن ذلك الطفل الحافي، الذي كانه، لم يبك في حينه لعدم تمكن أهله من شراء الحذاء، أو أنه بكى دقيقتين ثم سلّم بالأمر بواقعيّة مذهلة وراح ينط ويقفز ويلعب ويركض ويتسلق الاشجار والحيطان بغبطة ومرح هائلين، ودون أن يجد متسعاً من الوقت لغسل اثار الدموع المرتسمة على غبار وجهه. ثم إن بعض الأطفال الذين يملكون أكثر من زوج واحد من الأحذية يهرعون الى تقليده ويخلعون أحذيتهم ويركضون خلفه حفاة، رغم انتهار الأمهات وتوبيخ الاباء وتقريع الأجداد والجدات.

لقد قذفوا وجه طفولتي بصوداهم الكاوية المعروفة دولياً.. وكان لطفولتي بكاؤها الحقيقي ودموعها الأصيلة، لأن المخرج آنذاك سجل تاريخاً ولم يصنع فيلماً. ومع ذلك فلا أدعي بؤس الطفولة ولا أطلب

رحمة القاضي، بل أخاطب الطفولة بحب ومودة ومصالحة: عليك السلام أيتها الطفولة، حباً لما كنت عليه بلا تمويه ولا عمليات جراحية للتجميل أو للتنكر. وشكراً على ما كان منك عطاء وحرماناً خيراً وشراً فرحا وخوفاً حلماً وقلقاً ضحكاً وبكاء حبا وامتعاضا. وشكراً على كل شيء بلا انتقائية وبلا استثناء.

السلام عليك أيتها الطفولة وفيك الرضا والقناعة، وقد قيض لك الله أن تنشأي في أسرة ميسورة الحال وارفة الشجرة عميقة الجذور حريصة على الكتاب الجليل حرصها على الزيتونة المباركة والكرمة الرهيفة والتربة المعطرة بأنفاس الأجداد وعرقهم ودمهم.

وإن كنت عاجزاً الآن عن استحضار وجهك بكل قسماته وملامحه وتفاصيله فإن بعض أصواتك الحادة هنا والهامسة هناك تتردد من حين لحين في مدى الجسد وذاكرة القلب... وإنني لأذكر...

أذكرُ أطيافاً ضبابية من " قصر شبيب " الأثري في مدينة الزرقاء الأردنية حيث كان مولدي في الحادي عشر من أيار ١٩٣٩ والشطر الأول من أعوام الطفولة العصيّة على التحديد والتأطير والتأريخ.

لقد روى لي والداي في وقت لاحق أن بعض الدهماء هموا بقتلي في القطار الذي نقل الأسرة من الأردن الى فلسطين لأنني بكيت وخاف هؤلاء الدهماء أن تسمع الطائرات الألمانية صوت بكائي فتقصف القطار... كانت تلك أيام الحرب العالمية الثانية وكان هذا هو مستوى " الوعي الشعبي " الأمر الذي اضطر والدي لإشهار مسدسه لمنعهم من ايذائي، ولعل الأثر الذي تركته في نفسي هذه القصة– الطرفة (!) هو الذي يدفعني الى قول ما لا يقال، أحياناً، إنتقاماً من محاولة كم الأفواه المتعاقبة في حياتنا أفراداً وشعوباً وأمماً.

وكم كان على حق اولئك العلماء الذين اكتشفوا في الطفولة المبكرة أسس التكوين الأول التي نهضت عليها شخصية الإنسان. ولا شك في أن

التجربة والثقافة وموران الحياة تترك آثارها العميقة على روح الإنسان وفكره وسلوكه، غير أن مؤثرات الطفولة المبكرة ترفض، كما يبدو، التخلي عن نفوذها العميق الراسخ. وعلى سبيل المثال فقد زار منزل الأسرة الجليلية في الاربعينات الوسطى ضابط زميل لوالدي (رحمة الله عليه وعلى أمواتكم) كان ذلك الضابط أشقر الشعر أزرق العينين ربع القامةوكان انجليزياً يدعى الميجور جلمور، كنت في حدود الخامسة من العمر وأعجبتني كاميرا الميجور جلمور التي كثيراً ما استلها ليلتقط الصور لنا، لناس بلدنا ولمناظرها الطبيعية غير أن كاسكيت الميجور جلمور أعجبني أكثر من كاميرته وأكثر من القلبق الأسود المهيب بشريطه الأحمر الجانبي والتاج الذي يرصع وسطه فوق جبين والدي. ولأن الطفولة لا تمارس الشقاوة والألاعيب والتكتيك فقد دفعتني طفولتي الى سحب الكاسكيت عن رأس المستر جلمور أثناء انتظار وجبةالغداء، ووضعه على رأسي بمنتهى الجدية معلناً على الملأ أن هذا الكاسكيت يليق بي فقط ولا يجوز أن ينفرد به المستر جلمور. وضحك أفراد الأسرة والضيوف وقال جلمور كلاماً لم أفهمه فهرع والدي ليطمئنني الى أن المستر جلمور يعدني بأن يرسل الي كاسكيتاً مناسباً في المستقبل القريب. ولأن الطفولة تؤثر عصفوراً في اليد على عشرة على الشجرة فقد أصرت على أن تحتفظ "بعصفورها" وليدبر المستر جلمور شؤونه بنفسه.. وهكذا كان... لبس المستر جلمور كوفيّة من نوع الروزا بلون البيج قدمها له والدي، ومعها عقال مقصب ملون ساحر الجمال سأعتمر مثله يوم أحسُّ بالشيخوخة.. ومنذ ذلك الوقت وأنا أدمن الكاسكيتات واحتفظ بمجموعة منها من مختلف الألوان والأشكال... أما الشال الطويل فله قصته الخاصة.

ويبدو أن وقار طفولتي ومهابتها استدعيا "شقاوة" معلم اللغة العربية والفنون الذي اختارني لأدوار "البطولة" في عدد من المسرحيات

المدرسية، جلبت لي "شعبية وانتشاراً" كبيرين في بلدتي الرامة، لا سيما في أوساط الجميلات الصغيرات اللواتي اتحن لي قدراً كبيراً من الإعتداد والثقة بالنفس. وقد يكون لأداء الطفولة المسرحي أثره في تكوين قصيدتي التي ينعتها النقاد "بالدرامية والتركيب السيمفوني" وفي طريقتي الخاصة في إلقاء الشعر الى يومي هذا.

ومع أنني لا أدعي بؤس الطفولة وأعترف بانتمائي الى ما تجوز تسميته بأرستقراطية الريف التي تستمد نفوذها من ملكيتها الخاصة ومناصب المختار (العمدة) والإمام ومندوب الوالي التركي وصداقة المندوب السامي البريطاني أيام الانتداب، ومع بعض الوظائف التي تبدو اليوم عديمة القيمة مثل وظيفة أستاذ القانون للبوليس البريطاني في فلسطين، والتي شغلها الى حين، ابن عم والدي المحامي المرحوم علي حسين الأسعد في الثلاثينات، مع كل ذلك فإنني أزعم أن نزعتي الثورية بدأت هي الأخرى منذ الطفولة.

في المدرسة كنت ولداً مدللاً يسعى المدير وجميع المدرسين والمدرسات لإرضائه ومدحه.. وللحقيقة فقد كنت ولداً "شاطراً" وكنت على الغالب "الأول" في صفي دون محاباة. وأعتقد أن أحداً من المدرسين لم يكن مضطراً لتزوير علاماتي فقد كنت مجتهداً ومنظماً وجاداً بما يليق بوقار الطفولة! وحدث ذات يوم ما أغضبني على "السلطة الحاكمة" في المدرسة. فقد زارنا أحد المفتشين من مدينة عكا وقام بجولة تفقدية مع مدير المدرسة.وحين كانا بجانبي قال المدير كلاماً لا أذكره فابتسم المفتش وداعب رأسي وربت المدير على كتفي ثم "انتبه" الى ولد يجلس على مقعد مجاور وكان ذلك الولد من أسرة فقيرة. ويبدو أن المدير شك بأن مرضاً جلدياً أصاب رأس ذلك الود فوضع سبابته على رأس زميلي بتقزز ظاهر وحرك تلك الرأس وكأنها كرة قدم موحلة. ثم استل منديله الأبيض ومسح سبابته كأنما هو ينظفها من وسخ علق بها. وانصرف

حضرة المدير مع حضرة المفتش، لكن ليس قبل أن يودّعاني باحترام مناسب!

تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً في نفسي هو مزيج من الخجل أمام زميلي المستضعف والسخط على بلادة حضرة المدير وحضرة المفتش وعدم أخذهما مشاعر جاري بعين الإعتبار. قد نتوقع أن يصاب الطفل المدلل، وقد يكون مثل هذا التوقع وارداً بالحسبان، ولا أنكر أنني سعدت كثيرا بدلال الأسرة والأقارب وأصدقاء العائلة، لكن تدليلي على حساب مشاعر زميلي الفقير والعاجز عن حماية نفسه في مواجهة السطوة الكاملة، سطوة المدير ومفتشه، هذا الطراز من التدليل أثار سخطي وحنقي. هل كان مفروضاً في آنذاك أن أحتج علانية على اساءة معاملة زميلي وجاري؟ لا أعلم.. إنما منذ اقتحمت خطواتي الأولى جسر الواقع الملموس الى جلبة الحياة وصخب الكون في مرحلة الفتوة والشباب وأنا أرى في مقارعة الظلم ومصارعة الغبن بعضاً من مهام حياتي الأساسية.

١٩٤٨... (بصيغة الغائب)

طفل في التاسعة من العمر، لا يريد الاعتراف بالطفولة ولا يسلّم بخروج الهموم السياسية عن نطاق مشاغله. إنه يصغي للكبار باهتمام شديد ويشاركهم ثقتهم بأن العرب سيدحرون القوات اليهودية الغازية... انه يميل لتصديق الأناشيد الوطنية التي ينشدها مع سائر زملائه في جوقة الإنشاد المدرسية، كل يوم صباحاً عند اصطفاف التلاميذ في الساحة استعداداً لدخول غرف التدريس. كان شديد الحماس ليقينية عمه المنضم لتوه الى جيش الإنقاذ برتبة رئيس (كابتن) ثم برتبة رائد (ميجور)، ولم يعجبه قلق أبيه على الوطن وشكوكه المعلنة في جدية التحرك العسكري العربي. لكن ذلك الطفل ظلّ فخوراً بأبيه الذي لم يتأخر عن

نداء الواجب وحمل بندقيته الانجليزية وسارع الى القتال مع كل نداء استغاثة قادم من القرى والمدن والمواقع المجاورة.
وحين سقطت قريته في قبضة القوات اليهودية فقد سقط شيء في قلب الطفل الوقور، سقطت خارطة، سقطت أناشيد، سقطت أحلام وسقطت كلمات...
لقد أحب ذلك الطفل، سميح، أمه وتفهّم صرامتها في تربية أبنائها بقدر ما أحب والده الجميل والمهيب المحترم، والذي تعلّم منه الأناة والتبصّر قبل إصدار الأحكام والتسامح والتعالي على صغائر الأمور.. كما تعلم منه درساً لا ينسى في الصدق.
ذات يوم طلب الأب من إبنه "الشقي" سامي أن يصطحب أخاه الأصغر منه "سميح" الى حقل قريب لزراعة بذور القثائيات على أن يضعا في كل حفرة بذرتين أو ثلاثاً لا أكثر.. غير أن سامي كان على عجلة من أمره، وحتى يفرغ من المهمة ويعود للعب والشقاوة، فقد قذف خمساً من البذور وأكثر في الحفرة الواحدة، ومرت الأيام.. وأمطرت الدنيا... وأطلت البذور برؤوسها البيضاء والخضراء من نافذة الأرض المشرعة على الحياة... وذات مساء استدعاهما الوالد العائد من زيارة للحقل قائلاً "لا بدّ من أن تمطر الدنيا وتظهر الحقيقة" وتلقى "سامي" علقته المناسبة أما "سميح" الساذج البريء فقد أفرج عنه بكفالة ما زالت حيّة خضراء في أعماقه..إلى جانب الحب الأول وبيت الشعر الأول والرحلة الأولى في تضاريس الوطن والتاريخ والإنسانية.
صور وصور، في ألبوم الطفولة، بصفحاته الملموسة وبأوراقه المطوية بعناية فائقة في رفوف النفس وخزائن الذكرى... صور وصور تظهر وتخفى. تمحي وتتوهج بما يستحضر الذكريات حيناً، وبما يفرضه التذويت والتنويم والإخماد، في عالم فقد طفولته وفقد براءته وأصبح عرضة للتنكيل في مدرسة الكهولة الشقية الخبيثة والمتآمرة.

هو ذا وقار الطفولة يسترد خطوطاً وألواناً من سيرته الموغلة في القدم، محاولاً الفكاك من أسر شقاوة الكهولة التي تلعب بالألفاظ بمثل ما تلعب بالمصائر.

(كُتب هذا النص بناءً على دعوة من صحيفة "أخبار الأدب" القاهرية)

وثيقة تاريخية

نحن الآن معي، هنا في داخلي. هنا في المصعد المعطوب بين دورين لا ثالث لهما. أباريق وطاسات نحاسية على الشرفات. ووضوءٌ غير مكتمل أبداً. ونساء عاريات عاريات في المقابر العسكرية الخاوية.

* نحن الآن معي، هنا في داخلي. فلاحون يحرثون قنوات التلفزيون ويسقون بدموعهم أشتال الفيديو. عُمال أرقون. أرقّاء بلا عتق. كتب عتيقة. أجهزة إعلام مواخير. هيئات تخطيط قومية، بملاعق الخشب إياها، بقصعات الفخار إياها، بالليل المحيط – الأوقيانوس. نحن الآن.

* نحن الآن معي، هنا في داخلي. زبد. نراجيل. سيارات أجرة قذرة. مصابيح عمومية نسيها طاقم البلدية لذاكرة العَسَس. موانيء تتذكر وتبكي. تتذكر وتضحك. تتذكر وتصمت إلى الأبد. نحن الآن.

*هنا. لا نحن. لا آن. لا هنا. سيّاح يتورّطون مرةً واحدةً ولا يعودون أبداً. "باي باي" بابتسامة صفراء. "باي باي"، "فَكْ أفَ". الموسوعة الأقل دقةً من مهرج. الشعَراء الأقل شعراً من مُخبر. الصحف الأقل صحافة من حصيرة. والمؤتمرات المؤتمَرات المؤتمرات الأكثر يُتماً من يتيم فَقَد والديه في غارة جوية طازجة. فَقَد دموعه. فقد رُعبه. نحن الآن.

* أعود قليلاً. أتريث كثيراً من أجل الدقّة. محاولة أخيرة للفكاك من التعميم المحرج. لا فكاك. لا فكاك. وردةٌ مفترسةٌ تمدّ مجسّاتها المعدنية الى القلب. القلب المتعب المريض الوحيد والأخير. ميشيل دبغي، بالمناسبة. شعْب بوان، بالمناسبة. والأفاق الذي اسمه وصفته وطالعه أحمد بن الحسَين المتنبي. لُعبة. ضربة العمر. تكسب أو تخسر. سيان

الترجمات والأصول، الصمت والكلام، الهيولى وبراميل النفط الخام.
سيان التعب جنوناً والجنون تعباً. نحن الآن.

* على مفترق الطرق تصهل الأفعى. يخرج الخيّالة من لوحات الزيت المغبرّة ويقفون طابوراً أمامَ فرقة الإعدام. يوزعُ جنود الاحتلال حلوى على يتامانا ويطلقون نيرانهم الرشاشة في الهواء المنعش لنجد الوقت الكافي للسقوط مرة أخرى. مرةً في الفراش ومرة على أحذية العسكر. نوزع الحلوى على شهدائنا ونرقص في الأعراس حتى ساعة متأخرة من الليل. حتى نُعاس بنات آوى حتى سقوط نجمة الحُلم الأخيرة عن شجرة لم تُثمر من قبل ولَم تُقطع من قبل، لأنَّ البلطة معدَّة للعنق وشهادة الماجستير مريضةٌ بالدهشة المزمنة والأطباء يتسفَّعون على سطح المستشفى في المدينة الطبية، الثكنة العسكرية، البار، الكازينو. ويقول له: أمي رأت أمَّكَ هناك. فيقول له: وماذا كانت أمك تفعل هناك؟ وتقول لك: سأقول للعالم أن أختك زانية واذهب أنت لتثبت للعالم أنّ لا أُختَ لك. ويقول له: نحن الآن في حضيض الحضيض يا بُنَي. نحن الآن في قرارة الهاوية. لن تدركنا يد امريء القيس لأنه مشغول بمُلك أبيه. ابن الكلب الملتجيء إلى الروم هُوذا يُصبح نَسَقاً. يُصبح أنموذجاً تاريخياً. شرعيَّة غير شرعية. شرعية. ويقول له: وماذا كانت أمك تفعل هناك؟ نحن الآن.

* لعله المرض. لعله الخوف على الأولاد. لعله المستقبل المصنوع من بلاستيك لا نصنعه. لا أصنعه أنا بالتأكيد. والأولاد، ماذا يفعلون؟ ماذا يستطيعون أن يفعلوا بما أورثهم من صيغ ضائعة في حلم ضائع في لغة ضائعة في وقت ضائع ضائع ضائع؟ خدعة الأمل هذه. العمر الذي مَلَكَتْني بدايتُهُ ولم تورثْني نهايَتَه. الأولاد السذج الأبرياء. يلعبون بلا خرائط. لا يرون في الجَرائد الملونة سوى طيارات ورقية موعودة. الأرض الموعودة. أية كذبة؟ أي عبث؟ لا تضحك يا بُني. لا تضحك. نحن

الآن.

* كيف حدث ما يحدث؟ بأكواع متورِّمة غيظاً. بأنابيب الإنفوزيا في غرف العلاج المكثَّف. والانتظار في الممرات المضاءة بالنيون المُرعب. كيف حدث ما يحدث؟ لا أحد يذهب إلى شواطىء السباحة. لا استجمام للموتى. لا ضحك للمفلوجين. لا وقت للمراجعات. إصمت. تناول طعامك واشكُر. لا تتوقع. لا تحسب. لا تستطرد. طرادات. حاملات طائرات. جلبة في ملاعب الغولف. يأتي المَلك. يذهب المَلك. ضحكات مقتضبة. غمزات ثريّة على المرجة الخضراء دائماً قبالة البيت الأبيض. وهدوء على ملاعب الغولف. انها القيلولة المطمئنَّة. القيلولة المتخَمَة الصلفَة ولا شيء سوى ذلك. نحن الآن.

* أذكُرُ أيضاً دَوْخَةَ الخزي الدامي في المطارات. تلك الشبهة الوصمة. أذكر الاستهبال الواضح في سلوك البائع الصغير وخادم الفندق. أذكر الوحام الحيواني لدى تلك السيدة الدهشة: عربي وجنتلمان؟ أوه فانتاستيك. وأذكر النوريَ والسعدان، الطبلة والمزمار. ولمَ لا؟ لمَ لا تسير الأمور كما ينبغي أن تسير؟ لماذا تهددُ أغنيتي استقرارَ البورصة في نيويورك أو طوكيو؟ لماذا؟ لماذا؟ ونحن الان.

* سيمشي كُتّاب السِّيَر على الشوك. يقبض الشعراء جمر قصائدهم. يعضّ الخطباء ألسنتهم وحقائب السمسونايت الموصدة بحذر شديد على هواء معقَّم. من التُربة تأتي الشجرة. من الشجرة يأتي ما يأتي، ثانوياً، هامشياً، ومن حقيبة السمسونايت تأتي الخديعة الجوهرية. هنا يكمن السر هنا تبدأ المعضلة. تتقلع أكواز الرمان عمّا أثمَرَ الجهد، عن الأطفال الجدد في الظرف غير المناسب. وماذا يقول المخبر الصحفي؟ ماذا يستطيع أن يقول، ما دام هو الآخر لا يملك سهماً في صناعة البلاستيك، وفي ورشة المستقبل.

ونحن الآن.

* أمدّ يدي إلى مداها فترتجف. أمدّ قلمي إلى ورقته فيرتجف. أسأل قلبي ألا يخذلني فيرتجف. تمشطريح الليل أشجار الحديقة فترتجف. هكذا تتضح معاني الهزات الأرضية لا في أرمينيا فحسب. ولا في إيران فحسب. بل في أصقاع الروح جميعاً وفي تضاريس الجسد مأخوذاً مملوكاً مُستهْلكاً. والصحراء التي أشتهي والتي تجعل الملاذ ممكناً ثم تجعله مستحيلاً ثم تنغلق على ذاتها داخل جسدها المباح المستباح، داخل امريء القيس المتكرر بمُلكه الضائع ورومه القادمين كالجراد. نحن الآن.

منَ أغاديرَ إلى قلبي مروراً بالمُكَلاَّ

قلتُ كَلاَّ

ألفَ كَلاَّ

وإلى قلبي، من الموصل والشامِ

مَروراً بصفدْ

بَلَدٌ ينسى بَلَدْ

قُل هو الله أَحَدْ

قُل هو الله أَحدْ

* ونحن الآن معي وبدوني. في سحابة القصدير. في وشم البدوية الأخيرة. ثُلاثاء تُغادر أسبوعَها. تفاحة تتقمَّصُ حجراً. وردة مدججة بمجساتها المعدنية السامة. تحاصر وجعي. تحضني على نسيان حُبها العالق في القلب مثل درّاجة هوائية في زحمة السير. ميادين مكتظة بلا أحد. شوارع تحاذيها شوارع تحاذيها أرياف متراجعة أمام التصحُّر والغزو الأجنبي. ونحن الآن.

بينَ لحمي المُقيمِ على صلَوات مرارتهِ الجارحة

ورحيل دَمي

آخ. كم تشبه الليلة البارحة

بَين صوتي وبَين فَمي

لغةٌ واضحةْ

آنَ لي

آن أن أقرأ الفاتحةْ...

ونحن الآن...

توقيت محليّ على ساعات الوطن الخَربَة. ساعات على الوطن الخرب. خراب على الساعات والوطَن. وطَن بلَا ساعات وبلا وطن. جماهير تَزْدَردُ الخراب. الخبز. الخبيّزة. الخُبث. الخَطيئة. الخَطَر. الخصيان. الخصْب بلا ثمر. ثمر بلا طعم. ثمر من بلاستيك لم تصنعهَ نحن. وبالتأكيد لم أصنعه أنا. وأسئلة أخرى لا تنتظر جواباً.

ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ متى؟ أين؟ مَن؟ هل؟ أ؟هَب؟ أفَ؟ أسَ؟ أسئلة بلا إجابات. إجابات بلا أسئلة. توقيت محلّي خَرِب. موازاة تامة وبلا مكان على الإطلَاق.

ونحنُ الآن.

لن تُحاولَ الأَرضُ أن تنشقَّ لتبتلعني. فلأُحاولْ إِذن أن أنشقَّ لأبتلع الأرض. أنا الآن...

مقالة صغيرة في القول الكبير

ألّلسان –اللغة– الكلام– الكتابة– البلاغ– الإفصاح– اللهج– التعبير– ألبيان– القول: ومفردات أُخَر، بعضها تحجَّر في كهف القاموس، وبعضها يبحث عن جوهره في عَرَض أيامنا.

نقول كثيراً ونعني قليلاً. يظلّ القول أكبر من المعنى. يظل على حدّه أو خارجه. نقول في بلادنا ونعني بلاداً أخرى. ليس كأنموذج بل كصدى أو حدس أو تخمين أو وهم أو رغبة. أحياناً يتوفر الحلم لكنه سرعان ما ينسحب وينطوي على ذاته فيفقد ذاته. ويظل القول الذي لا يحمل معنىً في بلادنا ولا يوفّر معنى للبلاد الأخرى التي تمتلك قولها ومعناها بقدرٍ كاف من التطابق والانسجام.

لا أتفّلسف. أحاول وصف الراهن من خلاله. وأحاول تحقيق قدر من التكافؤ بين ما أقول وما أعني. وأحاول الخروج على ذاتي فيما أحاول الخروج على حالة تبدو لي عامة (مع كل ما في التعميم من مساوىء).

لا أتفلسف. أضع قليلاً من الملح الذي هو ملحي على قليلٍ من الجراح التي هي جراحي، ويكون ذلك على النحو التالي:

نقول الحرية

هل نقولها كما يقولها العبد، أم نقولها كما يقولها الحُر؟ " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ " نكررها يومياً دون أن يطرف لنا جفن، ونحن نَستعبد ونُستعبَد، وعياً ولا وعياً، نظلُّ عند تخوم القول. نلوب ونقول ونفرقِع أصابعنا ونستعرض جيوشنا وسبحاتنا وجرائدنا وشاشات تلفزيوننا، غير مدركين أننا في الحقيقة لا نملك شيئاً من هذا

على الاطلاق، لأننا لسنا أحراراً في أن نملك. ونكتفي بالوهم بأننا نملك وبأننا (شخصياً) أحرار، أما الذين يحتاجون الحرية فهم ناس آخرون، أشخاص آخرون، الشعب، الذي نحن منه في القول ولسنا منه في الحرية. نطالب بحرية المرأة ما دامت المرأة الأخرى خارج أسرتنا، خارج امرأتنا، خارج صَدَفتنا، خارج عبوديتنا. ونطالب بحرية الطبقة العاملة. وحرية الرأي. وحرية الصحافة وحرية الأديب. هناك وليس هنا. كأنما نحن مكلّفون بالانشغال الدائم خارجنا، حتى يتمكن آخرون (منّا؟) من متابعة الحرية في استعبادنا، وحتى نتمكن نحن من متابعة غيبوبة الحرية في عبوديتنا!

ونقول الوحدة

نقولها هتافاً في مظاهرة وشعاراً على منشور ولوحة على جدار وخارطة بلا حدود على شاشة تلفزيون. نقولها شعراً ونثراً. ونُقيم لها حزباً قومياً ثورياً تقدمياً وحدوياً مدنياً وعسكرياً، علمانياً ودينياً. وتصدّق الجماهير قولنا. وحين نحكم قطرين فانهما لا يتحولان إلى قطر واحد بل يتحول الحزب إلى حزبين. وتبقى الحقيقة الإقليمية الانفصالية الانعزالية، لكن يبقى أيضاً قول الوحدة. ونقولها بمنتهى الصفاقة والوقاحة. نقولها في عمىً تام وفي غيبوبة تامة. ونستحضر أرواح الآباء والأجداد من عقبة بن نافع حتى صلاح الدين ونستحضر الاستعمار والامبريالية والكولونيالية، حتى لكأننا لا نستطيع أن نكون إلا بكل أضرحة الماضي البعيد وشرور الماضي القريب. أما الحاضر فليس لنا. ذلك أننا (نحن) القول شيء و(نحن) المعنى شيء آخر. ونعي فصامنا ونعي داءَنا. وتظل الوحدة قولاً لا دواءً. فلا مكان مشتركاً ولا زمان مشتركاً بين القول والمعنى. ومن هنا يصدر جنوحنا إلى الظاهرة البسماركية. وهذا الجنوح الجنوني، بلا شك، يعكس رغبة حقيقية،

بلاشك، في الجمع بين ثورين هائجين على محراث واحد. وتظل الرغبة قولاً. ويظل العمل رغبةً لا أكثر.

ونقول الشورى

نقول الشورى حتى لا نقول الديمقراطية. ونحن في نهاية الأمر لا نعني هذه ولا تلك. ومن الطبيعي إذن ألا نبلغ لا هذه ولا تلك. ومن الطبيعي ألا يكون هذا الوضع طبيعياً. لكنه مما ينافي الطبيعة أن تستمر هذه الطبيعة.
نقول الشورى ونحلم ببزة الشرطي. نقول الشورى ونؤسس مجالس الشورى في حنين هائل إلى الدكتاتور وإلى الحاكم المطلق الذي يزيد من دكتاتوريته ومن حكمه المطلق كونه أسس مجلساً للشورى، ما دامت الشورى لا تعني الديمقراطية، وبهذا فهي لا تعني ذاتها، وتكفُّ عن أن تعني شيئاً غير القول، حتى لكأن القول هو الغاية والمعنى ليس غير وسيلة للقول، تفقد مبررها عند تحقق القول نفسه، مثلما يفقد الصاروخ مبرره حين يبدأ القمر الصناعي دورته الفضائية..

وهكذا

نقول الجهاد، نقول الفداء، نقول الدين، نقول الوطن، نقول الأخلاق، ونقول كل شيء، وعيوننا على الأضرحة أو على الشرور الوافدة من الغرب، أو من الشرق، أو من أية جهة متاحة، غير جهتنا نحن.
نقول ونقول، والثوران الهائجان في ألسنتنا وعلى (ألسنة!) أقلامنا، الثوران الهائجان في صحافتنا وإعلامنا وأدبنا وسلوكنا وعقولنا وفكرنا وإيماننا، الثوران الهائجان في أرواحنا وأيدينا وأقدامنا، الثوران الهائجان في جغرافيتنا وسياستنا واقتصادنا واجتماعنا، يشدّان ويشدّان، كلٌّ إلى قبلته، وإلى أُفقه غير الواضح...
وحين نخرج. فقط حين نخرج من شَرَك القول إلى صراط المعنى المنسجم

والمتناسق مع قوله، فقط آنذاك، نستطيع الجمع بين الثورين الهائجين على محراث واحد. وفقط آنذاك نستطيع استخراج ثمرة الجوهر من أجسادنا وأرواحنا وعقولنا وأرضنا. كيف يتم التحقق الكبير لهذه المعجزة الصغيرة؟

أنا أسأل. أسأل ولا أتفلسف!!

مع هذا ورغم ذلك

مع هذا، ورغم ذلك، فإنهم يظهرون على شاشات التلفزيون. يقلّدون كلارك غيبل ومحمود المليجي. بكوفية وعقال وعباءة تنساب من واشنطن إلى بئر نفط. من موسكو إلى بئر نفط. من برلين ولندن إلى بئر نفط. ومن عدسة المصور إلى بئر نفط. مع هذا ورغم ذلك يظهرون. وهم يتكلمون أيضاً ويبتسمون ويغطون أفواههم بأناملهم حين يتجشأون (ليس من اللائق ألا يغطي المرء فمه بأنامله حين يتجشأ). يتجشأون ويتوضأون مع هذا ورغم ذلك.

وكم كان أسامة بن منقذ سيحسدهم لو أتيح له هو الآخر أن يشاهدهم على شاشات التلفزيون مطوقين برجال الصحافة ومراسلي وكالات الأنباء العالمية. على رؤوسنا الطير. وعلى رؤوسهم هالات الأبهة والعظمة والقدرة على تحديد المصائر.

أما ذلك الكردي صلاح الدين الأيوبي فلن يفقه من أمرهم شيئاً. كردي. قلت لكم كردي. يقول ما يؤمن به ويصدق ما يقال له دون أن يسمع ودون أن يريد أن يسمع: "أريد سيوفكم لا دعاءكم" هكذا قال الكردي ابن الكردية. إنه يستخف بالماس ميديا. كان سيفقه شيئاً لو كان اسم القمر الاصطناعي "كردسات" أما أن يكون اسمه "عَرَبسات" فمسألة عصية على فهمه. الكردي. قلت لكم. لا يسمع ولا يتكلم. يجاهد فحسب. قلت لكم. وقد قال الشاعر قديماً:

وإنما الأُممُ الأخلاق ما غَشِقَتْ

فإن هُموُ شَخِفَتْ أخراشُهم، غود باي!

وأُقسم لكم أنَني لم أصافح كردينالاً في حياتي. صافحت بطركا وأكثر

من بطرك. لكن لا كردينالات في حياتي. وإنني لأقسم بشرفي. إنما ما يعنيكم أنتم من حكاية الشرف هذه؟ ألم يقل الشاعر:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيع من الْقَذى

حتى يُراقَ على الفراشِ العَنْدَمُ!

ها! ألم يقل ذلك أيها الحَمقى التنابلة الطاعمون الكاسون القاعدون؟ لا أُمازحكم. إنّي أشتُمكم. وإنني لأرى أقفيةً قد أينعتْ وحانَ جَلْدُها. فمن لي بسوط يطالكم من المحيط الهادر، إلى الخليج الثائر، لبيك عبد المعطي؟!

وأصلُ الحكاية أن صديقاً (هو في الحقيقة عدو على صورة صديق)، اتصل بي قبل أَيام ليقول:

– هالو. أعتقد أنك على وشك الجنون. وأقترحُ عليكَ مراجعة طبيب نفسانيّ. قلت:– راجعتُ أربعة أطبّاء نفسانيين. قال:– حسناً. وماذا حدث؟ قلت:– حسناً. أُصيبوا، أربعتهم، بالجنون. قال:–حسناً. وماذا بعد؟– قلت:–حسناً. راجَعَ كلٌ منهم أربعة أطباء نفسانيين آخرين. قال:– حسناً. وماذا حدث؟ قلت:–حسناً، أُصيبوا هم أيضاً بالجنون. وأصبحَ لدينا عشرونُ طبيباً نفسانياً مجنوناً. قال:–حسناً. وماذا بعد؟ قلت:– حسناً. لم يبق لي سوى أن أشرب من البئر حتى أصبح عاقلاً مثل سائر المجانين. ولم أشرب من هذه البئر ولن أشرب منها لأن العقلاء ينبغي أن يكونوا عقلاء. ولأن المجانين ينبغي أن يعقلوا، فلا يُعقل أن يحكمنا الجنون لأن الجنون لا يحكم بل يدمِّر. والجنون لا يستفتي بل يقرر. والجنون لا يؤمن بالشورى ولا بالتعددية ولا بالغيرية. إنه جنون ذاته، ولذاته الذي لا يمكن أن يكون ذاتاً، ما دام محكوماً بالجنون الذي لا يحكم بل يتحرك، خارج المقاييس والموازين والجهات. وهو يتحرك بفعل الجاذبية وبطاقة الغريزة فحسب.

وأما بعد،

فكرادلة بطرابيش وأكليروس بعمائم وفتاوى وفق الطلب وصحكوك غفران. كل صك ببئر نفط في الجنة.
ويتخرج فوج أكاديمي إثر فوج عسكري إثر فوج مغترب إثر فوج من الشعراء والراقصات والشهداء. ونقول للوحدة العربية اقتربي فتقترب. ونقول لها ابتعدي فتبتعد. ونقول اقتربي فتقترب وابتعدي فتبتعد. كأية أم عربية تحب أطفالها وتمتثل لأوامرهم، لأنها تشك في حبهم لها وتشك في مؤهلاتها بأن تُحَبَّ كما تُحبُّ على قدم المساواة، وتقترب وتبتعد ونقترب ونبتعد، ويظلّ هو الحاكم المطلق الصلاحيات، لكأنما ولد حاكماً ليحكم بالتجريد وفي الأبد. لا يقرأ سوى بياناته ومراسيمه ولا يفكر إلا بحذائه العسكري. ويتدفق الأطباء والأدباء داخل الحذاء العسكري، وتُعقد دورات الألعاب الأولمبية داخل الحذاء العسكري. وتتم الولادات وتُجرى العمليات القيصرية وتذاع الاعلانات لحليب نيدو ونسلة والأراجيح الأقل خطراً وملابس الأطفال الأكثر إثارة.. داخل الحذاء العسكري، بجوارب أو بدون جوارب. إنما داخل الحذاء العسكري. وكل شيء يسير بانتظام عسكري إلا الحرب!
قُلتُ الحرب لم أقل السلام فأي سلام يرد الآن بالحسبان؟
وقلتُ الحرب لم أقل الحرية. فأية حرية ترد الآن بالحسبان؟
وقلتُ الحرب لم أقل مشاريع الريّ والهندسة المعمارية وشق الطرقات والجسور. كل هذه الصغائر تأخذ مجالها وتحقق ذاتها داخل الحذاء العسكري المعدّ لكل شيء، عدا الشؤون العسكرية!
وأما بعد،
فإنني أتساءل بشأن الخلافة. لم يوفّق سلاطين آل عثمان بلكنتهم التَركية في أن ينجزوا خلافة للعروبة. ولم يأخذ الحظ بيد الفاروق بن فؤاد بن أبيه لينجز خلافةً للعروبة، فهل ينجح شخبوط بن عبلة بن أبيه حيث فشل هؤلاء؟

سؤال وجيه وأيم الحق! فامضِ يا ثعلبةُ إلى مضارب قُريش واستَفْتِ تَغْلِبَ وقُضاعَةَ في الأمر.

وأمّا بعد،

فماذا بعد،

ويا أيتها السماء.. كم أنا قريب.. وكم أنت بعيييييده... ....

(المقالات الثلاثة، "وثيقة تاريخية"، "مقالة صغيرة في القول الكبير" و "مع هذا ورغم ذلك"، أُخذت من كتاب "عودة الاستعمار" - إصدار منشورات "كتاب الناقد" - لندن- ١٩٩١)

القاسم يقدم الجواهري
في مئوية " الهلال "

أيها الإخوة والأخوات

أعوذ بتواضع الغابة من كبرياء الشجرة.

وبتسامح العبقرية الجواهرية أستعين، على ما ظل من عنفوان الشعر في زمن الموت الجماعي.

أما بعد،

فلا يقدم التلميذ الفتى أستاذه الشيخ... ولا يمهد المريد للرائد المراد المارد.. وكل ما في الأمر أن صداقة وألفة ومحبة لوجه الشعر والنضال جمعتني بعملاق الشعر العربي المعاصر شاعر العراق والعروبة الاكبر أبي الفرات محمد مهدي الجواهري منذ نيف وربع قرن...

كان ذلك في ديار الغربة الاوروبية الباردة. وحدث آنذاك أن جبال الجليد كلها ذابت في وهج اللوعة والحنين الى وطن عربي واحد موحد وإلى أمة عربية حرة كريمة مبدعة عالية...

وحدث فيما بعد أن الطلبة العراقيين في المهاجر دعوني تحت جناح أبي الفرات لتقديم قراءة شعرية في مدينة روستوك الألمانية الشمالية على بحر البلطيق... وحين قال لي أبو الفرات إنه سيقرأ قصيدته الخالدة "دجلة الخير" فقد ألفيتني قبالة ورطة لا أحسد عليها، بل أحسد أيما حسد... فماذا يقول شاعر حديث في حضرة هذه الجوهرة الكلاسيكية التي لم يتشرف التاج البريطاني بأن يترصع بما يضاهيها؟

كان العراق آنذاك رازحاً تحت محنة باهظة من الصراع الداخلي وكان العراقيون الأحرار ضحايا للقتل والسحل والخنق والشنق... اذن فلتكن

القصيدة تحية لشهداء الحب والحرية، ولتكن قبساً من مشكاة الجواهري ورائعته "دجلة الخير"... وكانت القصيدة...

عشرون عاماً مضت على هذه التجربة.... عشرون عاماً يا أبا الفرات، والله أكبر، وما أشبه الليلة بالبارحة... ولا غالب إلا الله...

عشرون عاماً ولا بأس ولا يأس، فها نحن هنا، تحت جناحك الرحب الوارف، نجدد العهد ونرمم القسم ونردد هدير البراكين القادم من أعماق الوجع العربي والأنكسار الرهيب في الجسد والروح: لا بديل لشهوة الحرية العارمة ولا محيد عن صراط الوحدة المستقيم ولا نكوص عن درب النور والشعر والتقدم الحضاري، دربنا اللاحب اللاهب المعبد بشواهد الشهداء وسواعد المناضلين، جنساً لن ينقرض وأمةً لن تموت وحلماً لن ينهار أفقه الحي.

وإذا شرفت أنت بالانتماء الى كتاب "جواهر الكلام" كما لم تنتم الأمم من قبل فاننا لنشرف ونعتز بانتمائنا إليك... أطال الله عمر جسدك، وها هو روحك الخالد في روح الأمة وها هو صوتك الهادر في وجدان الوطن وتضاريسه... ها هو منبرك يا فارس الشعراء وشاعر الفرسان... وإننا لمتلهفون الى سعادة تنثرها عاصفة تلاوتك برداً وسلاماً على جرح الجسد والروح... هوذا منبرك يا سيد الساحة والجسر والمنبر... فتفضل بما شئت على محبيك ومريديك

(القاهرة– دار الأوپرا–١٩٩٢)

لا، ليس كفنك من ذاك الشراع!

أبا الفرات، شيخي وصديقي، دائمَ الرحيل، دائمَ الإقامة، محمد مهدي الجواهري. قلتَ في رائعتك الباقية "يا دجلة الخير":

حَيَّيْتُ سفْحَك عن بُعد فحيِّيني
يا دجلة الخير. يا أمَّ البساتينِ
حيَّيتُ سفحَك ظمآنا ألوذ به
لوذ الحمائم بين الماء والطينِ
يا دجلة الخَير. يا نبَعاً أفارقُهُ
على الكراهة بين الحين والحين
إني وردت عُيون الماء صَافيةً
نَبعاً فنبعاً فما كانت لترويني
وأنتَ يا قارباً تلوي الرياح به
ليّ النسائم أطرافَ الأفانينِ
وددتُ ذاكَ الشراع الرَخْصَ. لو كَفَني
يُحاكُ منهُ غداةَ البينُ يطويني..

***

وهوذا البين يطويك، قريباً- بعيداً عن "نبع" فارقته الآن ايضاً "على الكراهة".. أما كفنك، فلم يكن من "ذاك الشراع الرخص"..وما دام أهلك المقيمون على شاطىء "دجلة الخير" محرومين، على أيدي الطغاة الغزاة الأجانب، من أكفان تحاك من أشرعتهم بعد احتراق الاشرعة وانخفاض منسوب المياه في دجلة، فلا بدّ من شكر- على واجب- نرفعه الى أهلك في دمشق الشام، الذين كفّنوك بقلوبهم وبما يملكون من أشرعة الحبّ والوفاء في زمن الحقد والخيانة.

ويا أبا الفرات. يا حبيب الشعر والوطن.. يا شيخي وصديقي، قد يتاح لي في ما تبقى من العمر يومٌ أحجُ فيه إلى ضريحك لأهمس في أذن موتك باعتراف لم أجاهر به في حياتك: يشهد الله أنني أحببتك أكثر مما أحببتُ المتنبي.

ولو لم تكن مسكوناً بهاجس المتنبي لكنتَ جنّبتَ هديرك الشهم شيئاً من التواءات الدنيا.. إنما رحمة الله عليكما أنت والمتنبي... ولتحلَّ رحمته علينا من بعد، وعلى خلقه أجمعين، أنه أرحم الراحمين.

كان أول عهدي بك، يوم حطَمت سيول روحك المباركة حواجز الحصار الاسرائيلي المضروب حولي منذ النكبة.. يومَ حوّمت نسور قصائدك في سماء قلبي ووجداني، وتحدَّر وهجها العربي الانساني الأصيل الى أرض قصيدتي البكر العطشى. يومذاك أحببتك أكثر مما تعلمتُ منك، ذلك ان العذاب القومي والغضب الانساني لا يحتاجان الى معلّم!

أنها الحياة فحسب، تنتجُ ملحها وجمرها، ومن ثمَّ، يختلط ملح بملح وجمرٌ بجمر وملحٌ بجمر..

ويوم نما اليّ انك عابرٌ بصوفيا، العاصمة البلغارية، في العام ١٩٦٨ فقد بادرت واخي محمود درويش وبعض من محبيك ومريديك الى لقائك، فتحت لنا الباب بيدك الطيبة التي تنطف شعراً وأصالة واحتضنتنا كما يحتضن أبٌ رؤوفٌ عطوفٌ ابناءَه العائدين من سفر بعيد. كنت هناك، شامخاً وضيئاً مشرقاً وكانت دهشتنا وكانت بداية ألفة وصداقة تنسخ الحدود وتمسح. الزمن..

خاطبتُك آنذاك، قصيدةً وانساناً، وأعدتُ على سمعك كلاماً قالته فتوَّتي في الشعر والعذاب:

عفواً يا عملاق الكلمه
إن شابتْ ألفاظي عُجْمَهْ
عَفواً فجراحي نازفةٌ

والظلمةُ تقتلني الظُّلَمَهْ
أنا " جعفر " في أرض أخرى
يمتصُّ فمُ الطاغي دَمَه...
وما ان ذكَّرتُكَ بأنني " جعفر " في أرض أخرى، حتى شددتني إلى قلبك مرة أخرى، ولنَ أنسى ما حييت زهرةً من ياسمين الدمع تفتحت على حدقتيك المجهدتين وكان لي أن سعدتُ بلقاءات أُخرى. ولن أنسى ما يذكره بعض أصدقائنا من ندائك المحبب اليَّ " أعد يا عدوّ الله " وأنا أتلو في حضرتك قصيدة " شهَداء الحب " التي كانت مشاركتي في مهرجان الطلبة العراقيين في مدينة روستوك الألمانية على بحر البلطيق في العام ١٩٧٠ كما أذكر.
صادٍ. وحفنةُ ريٍّ منك تكفيني
فجُدْ نُميتَ لأجوادٍ ميامينِ
***
وليس بي ظمأٌ للدمِ. إن دَمي
كما علمتَ لو استسقَيتُ يرويني
لكنَّ بي ظمأ للشمس، تجرعُها
غُبر الجذاءِ فتُحييها وتحييني
***
ماذا أقولُ اذا استُنطقتُ عن وجعي
والجرح جرحيَ والسكين سكّيني
ويوم يَزْحمُ وجه الموت ذاكرتي
أبكي عراقيَ أم أبكي فلسطيني؟
و "أعد يا عدوّ الله ".. و "كما شئتَ يا حبيب الله "...
وسهرة لاحقة في مفاتن براغ (براها على لسانك) حتى ساعات الصباح وظهور " دوريّة الجواهري " التابعة للشرطة التشيكية!

أما لقاؤنا الأخير، والذي هجَس القلبُ بأنه سيكون أخيراً، فقد كان في احتفالات مئوية " الهلال " في ربوع حبيبتنا القاهرة، في شهر سبتمبر أيلول ١٩٩٢.

كنت أنت ضيف الشرف المعزَّز المكرَم.. وكان لي شرف تقديم أمسيتك الشعرية التاريخية في دار الأوبرا حيث احتشد جمع غفير من محبيك وعارفي فضل قصيدتك.

حين عرضنا عليك ان تقرأ جالساً فقد عادت الى عينيك المنهكتين ياسمينة الدمع القديمة، أبيتَ الا أن تقرأ واقفاً مثل نخيل العراق.. وكعهدك فقد أبدعتَ حتى الذهول.

سألك رجلٌ عن سنك فقلت: " أنا أكبر من هذه السنة بسنة "... وفهمنا انك في الثالثة والتسعين...

وسألتك صبيّةٌ عن سنّك فقلت: " أنا أكبر منك بسنة "... وفهمنا أن نارك متمرِدةٌ عَلى الانطفاء...

واستضافتك مصر، وشرّدتك هزة أرضية، بعد الهزات السياسية التي طالما شرّدتك من وطن إلى وطن. ومن وطن إلى غربة ومن غربة إلى غربة.. أما الآن، فقد استقرَّ بك المطاف في وطن من وطن. هنا دمشق، هنا القدس، وبغْداد قريبة، قريبة جداً. انها هنا ايضاً، هنا في القلب، وبغداد تحبك.

ربما آتيك قريباً، لن نشرب ولن نصخب ولن نستعيد حكاية " بنت الشيطان " التي عشناها في براغ- أعني براها، كما تحب ان تسميها أنت باسمها المحلي.

ربما آتيك، وسآتيك ولن احمل اليك زهوراً لأنني أعرف انك لم تحبّ الزهور في الأصص والمزهريات أو في الأكاليل والباقات. سآتيك بولاّعة وبسبحة (تذكر طبعاً أنك في لقائنا القاهريّ إحتفظت بولاّعتي وبسبحتي متذمراً بخبثك الطفوليّ الجميل: إنهما بسيطتان، ليستا غاليتين، ومع

ذلك سآخذهما، ذكرى منك يا سميح. ذكرى يا عدوّ الله!).
سآتيك يا حبيب الله.. لن أحمل إليك زهوراً مُقلَّمةً منظمةً منضَدة. أعلم انك أحببت الزهور حرةً طليقةً بريّةً عفويّةً بفوضاها المرتَّبة بإرادة الله وبسرّ مشيئته... إذهبْ الى زهورك.. إذهب إلى هدوئك.. إذهب الى راحتك.. إذهب الى وطنك.. إذهب الى حبك.. إذهب الى رحمتك.. إذهب إلى حياتك.. نم على رَهَق غير دار بما جرى للفراتين.. واخلُد في الخلود ياشيخي وصديقي.. أنذا قادم بإذن الله يا حبيب الله.

(كل العرب– آب ١٩٩٧)

أخي عبد الوهاب البياتي

أنتَ جاملتَ الحياةَ كثيراً. وجاملتَ الموتَ كثيراً. من بغداد إلى موسكو عبر دمشق وعمان وبيروت. ومن مدريد إلى القاهرة عبر الرباط وطرابلس.. مروراً بتونس والجزائر. ولعلّك حللت يوماً ما على نواكشوط والخرطوم طائراً إلى الرياض فمسقط فالدوحة فدبيّ.. وجاملتَ الموتَ وجاملت بغداد لكن لتموت على المشارف، مشارف وطنك الصغير من وطننا الكبير.

وفي كلّ تحولاتك الجسدية والروحية كنتَ من كنتَ وما كنتَ، قاسياً مثل قاتل محترف، رقيقاً مثل مزار وليّ، رهيباً لطيفاً حالماً كنخلة.. محاطاً بالأصدقاء الكثر، لكن دونما صداقة واحدة، محاصراً بالأعداء السرّيّين والعلنيّين، لا لشيء سوى أنك قلتَ ما لا يُقال، ولا لشيء سوى أنك مجّدتَ الحرّية في أسواق العبيد ورفعتَ أذان النهار في أصقاع الظلام، ولا لشيء سوى أن عائشة، عائشتك، أرادت أن تكون.

ويا أخي قليلاً وصديقي قليلاً، يا عبد الوهاب البياتي، أيها الشاعر المنفتح كعاصفة والانسان المنغلق كمحارة، ها أنتَ لم تعد قادراً على المجاملة، وها أنت تندغم بغيمتك البيضاء وتنسحب مع حسراتك الطويلة، إلى جذور شجرة تمتد بين جثمانك وجثمان أخينا وشيخنا أبي الفرات، على مشارف الوطن الصغير، المنشغل بكوابيسه ودمائه وصراعه مع موته الخاص وموتنا العامّ.

ونحن، إخوتك في مجلس الفينيق الاستشاري، لم نجتمع في حياتك فهل نجتمع في موتك؟.. لا، ليس هذا سؤالاً جيداً، لأننا سنجتمع من أجل حياتك التي هي حياتنا بصورة من الصور وبشكل من الأشكال،

سنجتمع، وأرجو أن يكون ذلك قريباً.

جرياً على العادة، فلا شك في أن شيخاً ما لقَّنك ساعة الدفن صلواته ودعواته الدينية الخاصة.. وبقي علينا نحن، أصدقاءَك وزملاءَك ومحبيك، أن نلقِّن صمتك الأبدي شيئاً من هواجسنا المحدودة بحدود آجالنا: نحبُّك يا أبا علي.. نحبك يا عبد الوهاب.. نحبك شاعراً وإنساناً، حيّاً وميتاً وحيّاً.

أخوك

سميح القاسم

رســـالة في توضيح الواضــح

رؤية عربيّة في رؤية غير إسلاميّة

(ليس دفاعا عن العلويين أو الدروز أو النصارى أو الشيعة، بل دفاعا عن روح الأمّة ومستقبلها، في تعقيب على كتاب جاهليّ بعنوان "رؤية إسلاميّة في الصراع العربي-الإسرائيلي- الجزء الأول- مؤامرة الدويلات الطائفيّة" تأليف محمد بن عبد الغني النواوي (؟!) والله أعلم!)

بسم الله الرحمن الرحيم

حدث ذلك منذ سنتين تقريبا. كنت مُنغمسا في مراجعة أخيرة "لأنتولوجيا الشعر الفلسطيني في ألف عام" قبل دفعها للمطبعة عبر "دار عربسك" في حيفا. وتوقفت عن العمل في مكتبتي المنزلية في الرامة حين زارني جاري وقريبي الأخ حسن نسيب قاسم من نشيطي لجنة المبادرة الدرزية، متأبطاً كتاباً سميكاً من الحجم المتوسط. وعلمت منه أنّ صديقامشتركا من نشيطي لجنة المبادرة الدرزية في قرية أبو سنان الساحلية، هو الأخ سلمان مرزوق، كلّفه بأيصال هذا الكتاب إليّ للاطّلاع عليه وللبت في أمره.

كان عنوان الكتاب "رؤية إسلاميّة في الصراع العربي الإسرائيلي- الجزء الأول- مؤامرة الدويلات الطائفية". واسم المؤلّف محمد عبد الغني النواوي.

وكما يفعل القرّاء عادة فقد بحثت عن مزيد من المعلومات حول الكتاب والمؤلّف فلم أقع إلاّ على أنّها الطبعة الأولى وأنّها صادرة في العام ١٤٠٣ هجرية - ١٩٨٣ ميلادية. وأنّ جميع حقوق الطبع محفوظة للكاتب وقد أغفلت جهة الإصدار ومكان الطبع وأيّة معطيات أخرى عن الكتاب

والمؤلّف معا.

وحتى أكون لنفسي فكرة عن نصوص هذا الكتاب المتطفّل على عملي فقد مررت خفيف الوطء ببضع صفحات، لأكتشف أنّه مطبوعة أخرى من مطبوعات الدعاية المعادية للعرب، والتي تصدر عادة عن " جهات غامضة ومشبوهة ". ونظرا لانغماسي، كما أسلفت، في عمل أراه ضروريّا لتعبئة جماهير شعبنا في مواجهة الغزو الأجنبي عسكريّا وثقافيّا وسياسيّا، فقد قذفت هذا الكتاب الغريب الطارىء جانبا وعدت إلى عمل رجوت له أن " يراه الله ورسوله والمؤمنون ".

تعاقبت الأيام والأسابيع والشهور ونسيت هذا الكتاب في غمرة العمل المكتظ الذي نذرت له نفسي أدباً وسياسة، فكرا وممارسة، قولا وعملا.

ومنذ حين، اتّصل بي الصحفي الأخ رفيق حلبي طالبا إلي المشاركة في فيلم عن الدروز. وحين صارحته بأنّني لا أستسيغ تحجيمي في خانة طائفيّة أو إقليميّة، قال إنّ الفيلم العتيد يرمي إلى أبعد من ذلك، وأنّه لا يجوز تغييب موقفي ووجهة نظري من فيلم يتناول مختلف التيّارات الفكرية والسياسيّة المتصارعة داخل الطائفة العربية الدرزيّة، في مرحلة يُشهَر فيها سيف الطائفيّة ذو الحدّين الحادّين!

وافقت أخيرا، شريطة ألاّ تقتصر مُشاركتي على صفتي الأدبية، وألاّ يكون ظهوري من قبيل تبرئة الذمّة لدى الجهة المنتجة، والتي لا أعرف منها سوى رفيق حلبي شخصيّا.

ووافق رفيق وتمّ الاتفاق على أن يُسجّل ندوة أشارك فيها، في قاعة بلدية شفاعمرو، وهكذا كان.

في إطار الندوة، فوجئت بالعريف يُوجّه إليّ سؤالا أمام الجمهور الحاشد، عن هذا الكتاب. وتكرّر السؤال عنه في يافا وعكا والرامة والناصرة والقدس. وأدركت على الفور أنّ الكتاب لقي انتشاراً ممّا يجعل الردّ عليه واجبا وطنيّا بكل معنى الكلمة.

فاذا كان السكوت عن أمر ما يعني نفيه أحيانا، فانَه يعني الإقرار به أحيانا أخرى. ولأنه لا يجوز الإقرار بعمليّة التضليل وغسل الدماغ المنهجيّة في هذا العمل الدعائي الخطير، فقد آليت على نفسي أن أنتزعها من مشاغلها "التقليدية" لأزجّ بها في شغل طارىء كنت في غنىً عنه. وتمنيت لو لم أهدر عليه وقتا وجهدا من شأني أن أصرفهما في أمر أجدى للشعب، للوطن، وللأمّة.

إنّه كتاب يقوم على العصبيّة الطائفيّة الواضحة إلى درجة الفضيحة. فهو يلتزم مبدأ تقسيم البشر إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما، أبيض وأسود، فئة من أهل السنّة الأصوليين الأبرار الأخيار الأطهار المجاهدين، والآخرين الكفّار الأشرار الخونة المُرتدين المارقين. وللتحديد فانّ الآخرين هم الدروز والنصيرية والنصارى والأكراد والقوميون وسائر المتنورين من أهل السنّة أيضا.

من هنا فنحن إزاء كتاب قادم من جاهليّة التعصّب القبلي مع استبدال أسماء القبائل من بني هوازن وغطفان وشيبان وتغلب إلى بني سنّة وبني دروز وبني نصارى وهلمجرّا..

وما دامت هذه هي النزعة المُسيطرة، بل الوحيدة، في هذا الكتاب فانّنا نستطيع، سلفا، تصوّر المنهج الذي يسير عليه، وتصوّر النتيجة التي يرمي إليها: "الخير كلّ الخير في أهل مذهبي" (مذهب المؤلّف) والشرّ كل الشر في أهل المذاهب الأخرى" وبالطبع فانّ المتّزنين والعقلاء والمتنورين من أبناء هذا الشعب وهذه الأمّة، على شتّى أديانهم ومذاهبهم وعقائدهم، لا يُمكن أن يُقرّوا بهذا الحكم الجائر ولا يُمكن إلاّ أن يتصدّوا لمثل هذا النهج البعيد كلّ البعد عن العقل وعن الإيمان، عن الضمير وعن الوجدان، وعن تاريخ الأمّة ومستقبلها المرجو، إن شاء الله، ذلك أنّه في كلّ طائفة مَن فيها من أخيار وأشرار ووطنيين وخونة، والتعميم هو من قبيل الظنّ، وبعض الظنّ إثم.

وإذا كان عنوان الكتاب يوحي بأنّه ضدّ مشاريع الدويلات الطائفيّة التي خطّطها المستعمرون والصهاينة حقّا، فانّه في جوهره وخلاصته مساهمة كبيرة في الدعوة لتحقيق هذه المشاريع، لا سمح الله. إنّه كتاب يؤدي في باطنه إلى غير ما يقوله في ظاهره. إنّه كتاب يحضّ على التعصّب الطائفي وينمّي المخاوف لدى الطوائف الصغيرة، ويجعلها فريسة سهلة للغزاة والطامعين الذين يعرضون عليها "الحماية" من الأغلبية التي "تتهدّدها" في عقيدتها وحياتها وتهدر دمها!!

غير أنّ إيماننا الرّاسخ، والمُبرّر تاريخيًا، بترفّع السّواد الأعظم من أهل السّنة عن مثل ما ورد في هذا الكتاب المَشبوه من أفكار سوداء وباطلة وكاذبة، وإيماننا الرّاسخ، والمُبَرّر تاريخيًا، بترفّع السواد الأعظم من أبناء الطوائف والمذاهب العربية الأخرى عن الانزلاق في مهاوي التآمر، والانجرار وراء أشباح التضليل وشياطين الغواية، هذا الإيمان المُمتَحَن والمُجَرّب، يجعلنا على يقين من أنّ "آيات" التحريض الشيطانيّة لن تقوى على تشبّث هذه الأمّة بثوابتها التي لا تبديل فيها ولا تحويل لها ولا تأويل عليها، باذن الله. ولعلّ أظهر ما في هذه الثوابت قابل للاختزال في مايلي:

١ – التعدّديّة الدينيّة والمذهبيّة في الوطن العربي هي حقيقة تاريخيّة كفلها التسامح والتعاطف والتّفهم والتفاهم. ومن جهة تقوم أسس الألفة والمحبّة والإحترام المُتبادل داخل هذه التعدديّة على روح العديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبويّة الشريفة وتعاليم الخلفاء الراشدين وتعليماتهم، والتي لم تقتصر على العرب دون سواهم بل تعدّتهم إلى الشعوب الأخرى المُقيمة بين ظهرانيهم. ولا بأس في التذكير بوصيّة الخليفة الراشدي أبي بكر الصدّيق إلى أسامة بن زيد عشيّة إيفاده إلى بلادنا ومنطقتنا: "لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه

ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلاّ لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له".

ومن الجهة الأخرى، فانّ الطوائف والمذاهب العربية غير الإسلاميّة والإسلاميّة على السواء تحترم الإسلام وترى فيه أساس حضارتها ورقيّها ومجدها بعد عصور الجاهلية، وترى فيه تراثا قوميّا مجيدا يخصّ العرب جميعا.

٢- العرب، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وعقائدهم، هم أمّة واحدة، أصلا وأرضا وتاريخا ووجدانا ولغة وحضارة وطموحا، ومن حقّهم ومن واجبهم في آن أن يستعيدوا وحدتهم الضائعة تحت سنابك خيول الغزاة الأجانب وجنازير دبّاباتهم.

٣- لا تناقض، على الإطلاق، بين الوحدة العربية والوحدة الإسلاميّة،ولا تجوز إحداهما بديلة للأخرى. لا سيّما وأنّ العالم الحديث، الذي هو عالمنا الواقعيّ العينيّ المجسّد، يسير باتجاه الأطر الوحدويّة لكونها ضرورة ملحّة في مواجهة القضايا الإقتصادية والبيئيّة والاجتماعية.

ورغم ما يبدو على السطح، هنا وهناك، من بقاع الأرض وأقوامها، من ظواهر الانعزاليّة والتقوقع، فانّ الوحدة بمختلف الأشكال والصيغ تبدو اليوم، أكثر من ايّ وقت مضى، حاجة ماسّة لا غنى عنها لدى كلّ مَن يطمح إلى غد أفضل للأجيال القادمة من أبناء أمّتنا ومن أبناء البشر جميعا.

ومن قاعدة هذه القناعات الراسخة ننطلق لمُواجهة أباطيل الكتاب الذي نحن بصدده، وسنماشي المؤلّف (الجهة) وفق تسلسله هو مُكتفين بقليل من كثير، لأنّ القليل نفسه سيبدو كثيرا للقارىء الحصيف الذي يستدلّ على البحر من القطرة ويتعرّف إلى الغابة من الشجرة ويقرأ المكتوب من عنوانه، كما قيل.

يستهلّ الكاتب مؤلّفه بالبسملة وببضع آيات قرآنيّة عن الإيمان والتقوى

والقول السديد، ليوهم القارىء بأنّه مُقبل على كلام يستند إلى الآيات البيّنات، بحيث لا يجرؤ أحد على دحضه وتفنيده، بينما الكتاب برمّته يُناقض هاتيك الآيات ويحوّل الاستشهاد بها إلى عمليّة غسل دماغ على أحدث الأساليب السايكولوجيّة. فأيّ قناع يُمكن أن يكون أجدى للكذب من تصديره بكل ما يُمجّد الصدق؟ إنّها عمليّة تمويه مدروسة قد تنجح في أوساط مهيّأة للضلال لكنها عاجزة قطعا عن التسلل إلى الجماهير المُعبّأة تعبئة دينيّة وقوميّة وإنسانيّة سليمة.

وتأتي بداية المؤلّف مع "مذبحة حماة"، فهذه المذبحة، كما يرى النواوي (ولا نعرف عنه شيئا!!)، لم تكن صداما داميا بين نظام علماني يقوده حزب البعث العربي الاشتراكي، وبين حركة دينيّة أصوليّة، بل هي "انقضاض" من "قوات النظام النصيري الكافر على مدينة حماة المُسلمة"...

لقد تعاقب على قيادة حزب البعث في سوريا عدد من القادة من مختلف الطوائف، ولم يأخذ أحد منهم موقعه بحكم انتمائه الطائفي بل بحكم مؤهلاته الحزبية. لم يكن نور الدين الأتاسي أو أمين الحافظ ممثلَين للسنّة ولم يأت حافظ الأسد ممثّلا للعلويين، وهكذا فان الحديث عن "النظام النصيري الكافر"، لا ينمّ عن حقيقة حافظ الأسد أو حزب البعث في سوريا، وإنما ينمّ عن حقيقة التعصّب الدمويّ الأسود لدى المؤلّف الذي ينفي الحقّ الطبيعي لأيّ مواطن عربي في الوصول إلى موقع من الحكم في الأقطار العربية. فالنواوي هذا، وقد يكون هنديًا أو ماليزيًا أو باكستانيا، يبيح لنفسه حكم سوريا لكونه سنيّا، وينتفض غضبا حين يحكم سوريا أحد أبنائها من طائفة أخرى مهما ضربت جذورها مئات السنين في الأرض السوريّة العربية. ومثل هذا المنطق النواوي لن يكون مقبولا تحت أيّ ظرف على أبناء الشعب العربي السوري الذي ارتقى من مرحلة الجاهلية القبلية إلى مرحلة العلم والعقل والإيمان السليم،

وهو يحكم على القائد من خلال أسلوبه في القيادة وليس من خلال الطائفة التي ولد فيها.

ويقرر الكاتب النحرير من ثم أنّ (النظام النُصيري المجرم أراد مَحو المدينة من الوجود)، غير أنّه لم يشرح للقارىء الأسباب التي منعت هذا "النظام النُصيري المجرم" من تحقيق هدفه، علما بأنّه يملك القوّة الكافية لتحقيق مثل هذا "الهدف".

ويأتي دور "الشيعة". ويصدر الكاتب حكمه القاطع بأنّ الثورة الخمينيّة "لن تدّخر وسعا في تجنيد الشيعة في كل مكان، من أجل تحقيق أهدافها الإجرامية التوسعيّة، ولسوف تمضي في تعاونها مع كلّ عدو للإسلام".

ويستطيع القارىء حتى لو لم يكن حصيفا بالقدر الكافي، يستطيع أن يستشفّ من هذا الكلام رأي الكاتب في أنّ الشيعة ليسوا فقط "غير مسلمين" بل هم مع "أعداء الإسلام".. وهكذا فانّ توابيت الشهداء من أبناء الشيعة، التي أعادتها إسرائيل قبل أيام إلى لبنان، هي توابيت "أعداء الإسلام"، أمّا "المسلمون الحقيقيون" فيجب أن يُصفقوا لقوات الجنرال الأميركي شوارسكوف وهي تدمّر العراق "غير المسلم"!!!

وينتقل الكاتب النواوي هذا إلى الإجتياح الإسرائيلي للبنان فيُسجّل شماتته الحيوانيّة بالجيش السوري الذي "قامت القوات الإسرائيلية بضرب صواريخه المزعومة في البقاع والحقت بآليّاته ضربة فاصلة، ومرّغت كرامته في أوحال البقاع"..

أجل إلى هذا الحدّ من الشماتة الشعوبيّة المتخلّفة، يصل كاتب يزعم الإنتماء إلى الإسلام، ولا يحفل بكون الجنود السوريين الذين استشهدوا على أيدي القوات الإسرائيلية، هم بطبيعة الحال من السنّة والشيعة والدروز والعلويين والمسيحيين، فانّ حقده الأسود يُركّز بصرَه على القائد فقط، ويكفي هذا القائد "جرما" أنّه ليس من أبناء السنّة بل هو،

بالصدفة، مولود في الطائفة العلويّة، ووصل إلى السلطة عبر حزب علماني يضم أعضاءً وقياديين من كل الطوائف، ولم يصل إلى السلطة عبر "مؤسسات" الطائفة العلوية و"جيشها" و"حزبها"..

ولايخجل الكاتب من الكذب في أبسط أشكاله، فهو يُقرّر بلا رقّة هُدْب أنّ "كتيبة درزيّة من الجيش الإسرائيلي" هي التي احتلّت مناطق الدروز، حتى لكأنّ المؤلّف ضابط في المُخابرات الإسرائيليّة يُدرك "حقائق الأمور" وتوزيع القوّات الإسرائيلية، وكأنّه لا يعلم أنّ القيادة الإسرائيلية "أذكى" بكثير من أن تُفكّر على طريقته، وأنّها لا تقبل بأنْ تُكلّف "الأغيار" من جنودها، دروزا أو سنيين أو مسيحيين، بمهام "طليعيّة"، كمهمّة اجتياح منطقة من المناطق.

ويقوم المؤلّف بعمليّة تزوير وَقحة في حديثه عن الجولان، فالمرحوم كمال كنج أبو صالح الذي قضى ردحا من الزمن في السجن الإسرائيلي لإقدامه على فضح مخطّط "الدولة الدرزية" ورفضه التعاون مع الاحتلال، يتحوّل لدى هذا الكاتب الساقط إلى "خائن ضالع" في المخطّط. ثمّ إنّ الشهداء والأسرى والمُشرّدين الدروز من أبناء الجولان ليسوا سوى جزء من مؤامره، "فاسرائيل تُريد أن تصنع من الدروز أبطالا" على حدّ قول النواوي..

من الواضح أنّ هذا الكلام هو "كلام إسرائيلي صرف"، فهو يقول لدروز الجولان: كفّوا عن مقاومة إسرائيل. كفّوا عن أن تكونوا أبطالا. وحين تستسلمون للإحتلال الاسرائيلي وحين تقبلون الهويّة الإسرائيلية وحين ترفعون الحرمان الديني عمّن يقبل بضم الجولان إلى إسرائيل، آنذاك فقط يرضى عنكم "النواوي" هذا،وآنذاك تصبحون "مسلمين جيّدين" لا كفرة "دروزا" أو "نُصيريين كافرين"..

يتحدّث الكاتب من ثمّ عن "منهجه في البحث" ويُقرّر أنّه "المنهج الإسلامي ويستشهد بقوله تعالى "اعدلوا هو أقرب للتقوى"..وبعد

هذه "التقوى" مباشرة يُعلن المؤلّف "التقيّ". "فكرهنا وعداوتنا للدروز والنُصيريين المرتدين، واليهود والنصارى الكافرين المُشركين، لا يعني أن نقول عنهم بالحقّ والباطل، وإنّما نقول الحقّ ونتحرّى الدليل.." .

وحين يفرغ القارىء العاقل من هذا الكتاب السّام والوسخ، فانّه يكتشف إلى أيّ مدى كان هذا "المريض بالكراهيّة" مُستعداً لاعتناق الباطل وتزوير الدليل لتبرير كراهيته العمياء.

وهو يُعلن نفي كتابه الأسود الشرّير ومن الصفحات الأولى أنّه سيُتّهم بالتعصّب، وأكثر من ذلك فهو يستدعي هذه التهمة، ثم أكثر من ذلك فهو يختبىء وراء هذه "التهمة" لأنّه في خلاصة الأمر ليس متعصّباً على الإطلاق لَمذهب السنّة، بل هو يسعى لإلحاق الضّرر بهذا المذهب حتى لكأنّ الكتاب وضع أصل ليس للإساءة إلى العلويين والدروز والمسيحيين، بل بقصد الإساءة إلى السنّة الشريفة وتشويه جوهرها المتسامح الطيّب وتلويث روحها بالحقد الهمجي الغريب على الإسلام بكل مذاهبه.

وتبلغ الوقاحة بهذا الشخص النكرة درجة التشهير بالدّعاة الإسلاميين واتّهامهم بالرياء والنفاق لرفضهم منهجه ولإيمانهم بضرورة الصداقة والتآخي والتعاون بين الطوائف، ويشنّ هجوما على هؤلاء الدعاة من أهل السنّة الذين أشادوا "بثورة صالح العلي في جبال النصيرية وسلطان الأطرش في جبل الدروز".. وهو يُهاجم الصحيفة الإسلامية التي "كتبت كثيرا من المقالات عن بطولة سلطان الأطرش ووطنيّته".

ويتساءل هذا الشعوبي البدائيّ الصغير: "فكيف يُريد منّا ناس من الناس أن نسكت حتى عن قول كلمة الحقّ إرضاء للشوفيّ، أو خشية غضب حنا وميشيل؟!". ولعلّ قوله هذا كان وراء أولئك الذين هاجموا طارق (حنا) عزيز العربي، بينما هم يدبّون كقطعان الماشية وراء الرّاعي

الأميركي " جون " !!!

و " يستدرك " الكاتب فجأة، فيعود إلى " دور المجوس "، ويؤكّد " ارتباط الثورة الإيرانية بالمخابرات الأمريكية " وأنَّ لها " صلات مع الكيان الصهيوني ومع جميع أعداء الإسلام من شيوعيين وقوميين باطنيين أمثال حافظ الأسد ومعمّر القذافي ".!

ويتّضح للقارىء العاقل من الصفحات الأولى أنّ النواوي هذا مُصاب بمرض البارانويا الذي يدفعه إلى الهذيان: " ففي مصر مؤامرة قُبطية، وفي السودان وإثيوبيا وتشاد مؤامرة صليبية، وفي المغرب العربي مؤامرة بربرية وفي تركيا مؤامرة أرمنية.. وفي معظم بلدان العالم الإسلامي مؤامرة شيعيّة " .. وإذا بحثت في الكتاب عن الدلائل على هذه " المؤامرات " فلن تجد غير أكداس من الهلوسات التي تحتّم استدعاء الطبيب النفساني.

يدهش القارىء الإنسان إزاء الكميّة الهائلة من الحقد الوثنيّ الذي يفرزه هذا الشخص على امتداد أكثر من خمسمئة صفحة، ولا يكتفي، بل يعد بأجزاء أخرى من مؤلّفه هذا الذي يُشكّل حملة دمويّة على الأمّة العربيّة دونها " الحملات الصليبية " من قبل وحملة " عاصفة الصحراء " من بعد.

إنّه يضرب ذات اليمين وذات اليسار مثل أفعى مجنونة في هجيرة صيف صحراوي قائظ.

يشتم طائفة ويعود إلى أخرى ثم إلى الأولى فالى الثالثة، ولا يكتفي، فينقضّ على الشخصيات من أبناء الطائفة السنيّة نفسها، من عبد الناصر حتى معمّر القذافي حتى ياسر عرفات، ولا يفوته أن يُشيد بالدكتاتور أديب الشيشكلي الذي شنّ حملة عسكرية على جبل العرب (جبل الدروز) سنة ١٩٥٢.. (بعد أن حرّر فلسطين وقضى على إسرائيل!!!).. ويعود فيذمّ الشيشكلي في موقع آخر " لتآمره مع الدروز " ومع " عراق نوري

السعيد " في خدمة الإستعمار وإسرائيل.

إذا كنّا سنردّ على كلّ الإفتراءات الواردة في هذا الكتاب فسنضطر إلى وضع كتاب في حجمه. ولأنّنا منشغلون، بمشيئة الله، بما هو أنفع للعرب وأجدى للمسلمين، وأفضل للبشرية، فسنكتفي بالتعليق على عيّنات من هذه الكومة من القمامة، وبما يكفي للتدليل على تفاهة هذه المادّة التحريضية السّامة والسافلة، ويأخذ بيد القارىء الواعي والطيّب على طريق الهداية خارج هذا الحشد من الضلال.

من الأمور المعروفة تاريخيّا أنّ الدروز لم يذهبوا إلى جبل حوران في حملة عسكريّة منظمة، بل رحلوا إليه في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر، جماعات وأفرادا، هربا من الإضطهاد العنيف والدمويّ الذي لحقهم في لبنان، ولا سيّما في منطقة وادي التيم. ولا يُنكر المؤلف الحصيف " أنّهم تعرّضوا لشيء من الاضطهاد "، لكنه يُقرّر أنّهم هاجروا إلى جبل حوران " تخطيطا من أجل إقامة دولة خاصّة بهم ".

إذا كان العبيد يرون في ما تعرّض له الدروز في لبنان " شيئا من الاضطهاد " على حدّ تعبير الكاتب، فإنّ الأحرار يرون فيه اضطهاداً لا يُطاق، وشتّان بين نفس العبد وبين نفس الحرّ.

وإذا كان الدروز قد خطّطوا لدولة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فكيف يستطيع المؤلّف الحصيف تفسير كونهم، بقيادة سلطان باشا الأطرش، قد هدموا حدود الدويلات التي خلقها الفرنسيون والإنجليز، وقدّموا سرايا من الشهداء في سبيل وحدة الأرض السورية والأرض العربية في القرن العشرين؟.

ومن الأمور المضحكة أنّ المؤلّف " يُعيّر " الدروز " بعطف " الإنجليز عليهم، علما بأنّ وثائق التاريخ العربي المعاصر كلّها تؤكّد أنّ النصيب الأكبر من " العطف " الانجليزي كان منصبّاً، ولا يزال، على أولئك الذين

" وعدتهم بريطانيا الحليفة " بدولة من المحيط إلى الخليج. وما هم من الدروز ولا يحزنون، ولا نرى مُبرّرا لتذكير المؤلّف بانتماءات هؤلاء الطائفيّة، لأنّنا في هذه الرسالة، لا نبرّىء طائفة حتى ندين أخرى، بل ندين النهج الطائفي الأحمق في دراسة أحداث التاريخ وتطوّراته، وندين السّعي المنهجيّ لرفع المسؤوليّة في كوارث الأمّتين العربية والإسلامية عن كواهل الإستعمار وأعوانه الكبار المعروفين،ووضعها على أكتاف الطوائف الإسلامية والعربية الصغيرة التي كان الإستعمار نفسه وراء التنكيل الذي تعرّضت له، ومن أجل أن يأتي ذات يوم واحد مثل النواوي هذا لإعفاء الإستعمار وعملائه الكبار من المسؤوليّة التاريخيّة، وإلهاء الجماهير الواسعة وصرف أنظارها عن الحقائق الجوهرية إلى ادّعاءات تصغر حقائقها الصغيرة أمام كبر باطلها الكبير.

نحن نرفض السّعي المنهجيّ المُتجسّد في هذا الكتاب المَشبوه، لتصوير تاريخ العرب والمسلمين وكأنّه تاريخ صراع بين طوائف ومؤامرات طوائف على طوائف، ونؤكّد ما ذكرناه دائما من أنّ تاريخ العرب والمسلمين كان ولا يزال صراعا بين الشّعوب العربيّة والإسلاميّة من جهة وبين قوى الإستعمار وتكاياها ومطاياها في المنطقة، متمثّلة بالأنظمة ذات الحول والطول والتي لم تقم على أساس طائفي بل على مدى الارتباط بهذه القوّة الاستعماريّة أو تلك أو بمدى الارتباط بمصالح هذا الشعب أو ذاك.

ولا نرى في الثورة الإيرانيّة مؤامرة من أهل الشيعة ضدّ أهل السنّة، بل نرى فيها هبّة شعبيّة من "المستضعفين في الأرض" الإيرانيّة على نظام الشّاه الفاسد والعميل.

ومع احتفاظنا بحقّنا الكامل في مناقشة هذه الثورة، فإنّنا نحتفظ أيضا بحقّنا في التصدّي لمحاولات التزوير والتّشويه التي من شأنها تثبيط عزائم المسلمين وتوريطهم في حزازات وعداوات وحروب لن تكون في

صالحهم، ولن تكون إلاّ في صالح أعدائهم القادمين من وراء البحار والمُقيمين على أرض المستَضعفين في الأرض.

لا يستطيع المرء إلاّ أن يبتسم أحيانا وهو يستعرض بهلوانيّات المؤلّف التاريخية. فهذا "المؤرّخ" فنّان في الدجل والتّهريج والديماغوجيا (قد لا يفقه معنى هذه اللفظة الكافرة!!). وعلى سبيل المثال فإنّه "يُحرج" سلطان باشا الأطرش بسؤال عن رأيه في "الجرائم التي ارتكبها لورنس ضدّ الأتراك المسلمين في بعض قرى حوران، وكان الدروز من الجند الذين يُنفّذون أوامر قائدهم لورنس"...

ولورنس هذا معروف بلقب "لورنس العرب" لا "لورنس الدروز" أو "لورنس السنّة"، والجرائم التي ارتكبها ضدّ الأتراك المسلمين لا تُبرّر الجرائم التي ارتكبها الأتراك المسلمون ضدّ العرب المسلمين، واسم لورنس قد يُقرن باسم الشريف حسين بن علي أكثر ممّا يُقرَن باسم سلطان الأطرش. وبقدر ما نعلم فانّ الشريف حسين بن علي لم يكن درزيّا، ولا يستطيع النواوي هذا "التشكيك" في نسب الشريف حسين، ونحن بدورنا لا نستطيع السّماح له بمهاجمة هذا النسب، فكلُّ نفس بما كسبت.

يؤكّد المؤلّف أنّ المسلمين "ذاقوا الويلا تمن الدروز الذين تطوّعوا في جيش فرنسا وأجهزة أمنها".. غير أنّ المؤلّف "الأمين لحقائق التاريخ" لا يُنبئنا بنسبة هؤلاء الدروز من مجمل العرب السوريين الذين "تطوّعوا في جيش فرنسا".. ولا يدخل في تفاصيل الرّتب والمراكز العسكرية التي شغلها الدروز وغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى.. ولا يُحمّل نفسَه عناء الإشارة إلى أنّ فرنسا زجّت بفرق كاملة من الجنود المَغاربة في حربها الدمويّة ضدّ الثورة السوريّة الكبرى وضدّ جبل العرب معقل الثورة، بشكل خاص، ومع ذلك فقد رفض سلطان الأطرش ورفاقه المجاهدون توجيه اللوم إلى الشعب المَغربي الشقيق ولا إلى هذه الطائفة

أو تلك،لأنّهم أدركوا بوعيهم القومي النظيف والعالي والكبير أنّ هؤلاء لم يكونوا جنودا في جيش عربي مسلم، بل كانوا جنودا في جيش استعماريّ فرنسيّ، وعليه فانّ سخطهم انصبّ على فرنسا، لا على المَغرب، وعلى الاستعمار لا على السنّة أو الشيعة أو غيرهما من الطوائف المَغلوبة على أمرها.

لقد كانت الثورة السورية الكبرى بقيادة الزعيم العربي الإسلاميّ الكبير المُجاهد سلطان باشا الأطرش،ثورة المُستَضعفين في الأرض العربية، لا ثورة طائفة أو عشيرة على طائفة أو عشيرة.. كانت تلك ثورة عربية إسلاميّة مَجيدة وخالدة، ولن يستطيع مسخ من هذا الزمن أو من سواه أن ينال من الوجدان العربي والضمير الإسلامي الذي أحلّ هذه الثورة وقادتها في الصميم الطاهر إلى يوم الدّين، يوم تجيء " كلّ نفس ومعها سائق وشهيد ".

تعجّ صفحات هذا الكتاب التافه بالتناقضات الحمقاء، فهو من جهة يقول إنّ الدروز والمسيحيين ناصروا فرنسا ضدّ المسلمين، وبعد ذلك بقليل يقول إنّ الدروز هاجموا القرى المسيحية في حوران " لتأديبها " بسبب تعاونها مع فرنسا... ويُحذّر في موقع ما من الخطر اليهودي الذي لا مثيل له ثمّ يعود فيؤكّد أنّ الدروز " لا يقلّون خطرا عن اليهود "، ويُندّد بهجوم الدروز على المسيحيين ويُعيّرهم به ثم يقول إنّ المسيحيين " هم وراء كل مصائب المسلمين " وهو في ذلك أشبه بالرّجل الذي يضربه صاحب العمل فيعود إلى البيت ليضرب زوجته وأولاده.. انتقاما من صاحب العمل الذي أذلّه!!

ويتشربك المؤلّف بخيوط معقّدة لا حصر لها، حتى يخرج في النهاية برأي واحد لا شريك له: أهل السنّة الذين يُقرّون النواوي النكرة هذا رأيَه هم المسلمون الحقيقيون أمّا أهل السنّة الذين يُعارضونه الرأي وأبناء الطوائف والأديان الأخرى، فكلّهم أعداء للإسلام " .. وهكذا فإنّ الشرقَين العربي والمسلم، هما على طريقة النواوي هذا موطن "أقليّة

من المسلمين " مُحاطة بأغلبية من أعداء الإسلام! إنّه يُنصّب نفسَه قيّما على العرب والمسلمين وما هو ممّن يُعتدّ بهم لا هنا ولا هناك، وسبحان الله الذي له في خلْقه شؤون وشجون.

في أعقاب نكبة شعبنا العربي الفلسطيني، أصبح طبيعيًا أن يشهد العالم العربي موجات من الانتفاضات والانقلابات والهبات الشعبية. وعاش القطر العربي السوريّ جملةً من هذه الحالات الانقلابيّة، ومن الطبيعي أن تُشارك عناصر قياديّة من مختلف الطوائف في هكذا انقلابات وقد ينجح بعضها إلى حين وقد يفشل بعضها إلى حين أيضاً.

وفي عام ١٩٥٦ شهدت سوريا محاولة انقلابية. ولأنّ المؤلّف قرّر سلفا إدانة الدروز فهو يضعهم في مقدمة "المؤامرة الاستعمارية الإسرائيلية".. وانظروا كيف يطرح الأمور من أجل تحقيق غايته:

المتآمرون هم الدروز وعراق نوري السّعيد (ليس عراق السنّة أو الشيعة!) الذي زوّد الدروز بثمانية آلاف بندقية، ثم النصيريون. ولماذا النصيريون؟ لأنّ العقيد غسّان شديد المُشارك هو الآخر في "المؤامرة" لم يولد في أسرة كاثوليكية بل في أسرة علويّة! ثم يأتي دور "بعض القبائل المُوالية للعراق".. ولم تُشارك هذه القبائل السنيّة لكونها سنيّة، بل لأنّها "تُجاور الدروز في الجبل وبادية الشام"..

وتظلّ مأساة الكاتب الجهبذ "عند الذين ينقصهم العلم والوعي السياسي والصدق من أبناء السنّة".

وهكذا، فانّ هذا الدّجال النكرة لا يكتفي بالدعوة لفرض "صدقه الخاص" وإعمال السيف في رقاب "المُرتدين الدروز والعلويين"، بل يتعدّاهم إلى الملايين المتنورين من أبناء السنّة. ونعود إلى القول السّابق بأنّ هذا الشعوبي لا يعنيه أمر السنّة، وكل ما يَعنيه هو فهمه الجهنمي الخاص والشخصي والمَرَضيّ، ونزعته الشيطانيّة لفَرض هذا "الفَهم" الجاهل على جميع أبناء الأمتين العربية والإسلامية.

ونعود مرّة أخرى إلى "خبرة" النواوي في الشؤون العسكرية الإسرائيلية، فهو (المؤمن، الصادق، العادل الأقرب للتقوى!) يؤكّد أنّ شقيق سليم حاطوم هو "ضابط طيّار في جيش الدفاع الإسرائيلي"..
وهذه "الحقيقة" من "حقائق" السيد النواوي تكفي لإضحاك نصف مليون عربي فلسطيني على الأقل، ونعني بهم أولئك الذين شاء لهم الله تعالى أن يبقوا على تراب الوطن تحت الحكم الإسرائيلي، ويعلمون أنّه ما من ضابط طَيار ولا يحزنون، وأنّ اليهود أقل ثقة "بخيانة" الدروز من ثقة النواوي هذا، والذي لا نستغرب إذا تبيّن فيما بعد أنّه هو نفسه يهوديّ من طراز إيلي كوهين.
من مقوّمات البحث العلمي الرصين أن يدرس الباحث معطيات الواقع بكل جوانبها وأبعادها، ثم يخلص إلى نتيجة ما وفق هذه المعطيات. أمّا النواوي هذا فانّه يضع "النتيجة" أوّلا ثم يُحاور الواقع ويُناوره ويُداوره في محاولة مستميتة لحشر الحقائق التاريخية في "حذاء صينيّ معدنيّ".
ولو كان الكاتب ذكيًا بعض الشيء لحاول إضفاء مسحة من الموضوعية على مصنّفه الضخم، كأن يُسجّل لأبطال الطوائف الصغيرة بطولاتهم ليزعم من بعد أنّهم "أشبه بصالح في ثمود".
ربّما كان هذا الأسلوب قادرا على بلبلة بعض الناس السذّج، أمّا انتهاجه مبدأ التعميم الصارم، فقد أوقعه في شراك ذاته ونزعاته، وحوّل كتابه إلى شتيمة كبرى متّصلة، رغم محاولته، في المقدمة، التملّص من غرائزه البدائيّة والتستّر بحجاب من "العلمية والموضوعية والمنهجيّة".
ولأنّ الكاتب أسير غرائزه ولا يفقه شيئا من معاني التعدّدية لدى البشر، ولأنّه ينظر إلى الطائفة أو إلى الشعب أو إلى الحزب باعتبار هذه التجمعات مجرّد قطعان تتبع الرّاعي بلا تفكير وبلا نقاش، فإنّه يتوهّم، وبمقدار مذهل من البارانويا، أن كلمة من هذا الزعيم أو ذاك، وموقفا

منه، أو إشارة، تكفي لجرّ الشعب كلّه وراء هذه الكلمة -الموقف- الإشارة. ولا تُتيح للكاتب ثقافته المتخلّفة أيَّ مجال للتفكير في أنّ البشر سواء في الإطار القومي أو الطائفي أو الحزبي أو الأسري قادرون على النقاش والاختلاف والاتفاق والتصارع وفق ما يرتأيه الإنسان-الفرد. وهكذا فالعلويون عنده هم كتلة واحدة تُحرّكها قوّة غيبية من خلال شخص فرد. وإذا اختلف اثنان من العلويين علانيّة، فإنّ النواوي يصرّ على أنّهما "يُنسّقان سرّا"، ويوزّعان الأدوار. وبهذا فهو يُلغي العقل والمنطق ويكتفي بغرائزه الطائفيّة القاصرة.

وإذا مارس أحدهما التصفية الجسديّة ضدّ الآخر، كما حدث في سوريا مثلا، فانّ هذا أيضا نوع من "التنسيق" وفق النظرية النواوية: يتّفقان على أن يقوم أحدهما بدور القاتل ويقوم الآخر بدور القتيل!!

وعلى هذا المقياس يُحاكم الدروز أيضاً، فلسلطان الأطرش "يُنسّق" مع سليم الأطرش أو غيره من الطرشان، وكمال جنبلاط "يُنسّق" مع الشيخ أمين طريف، وجبر معدّي ينسّق مع مرزوق معدي، وربّما مع "جمال معدّي" رئيس لجنة المبادرة الدرزيّة!!

ويرى أن يزجّ بي أيضاً في عمليّة "التنسيق" هذه، فأنا (الفقير لله سميح القاسم) "أُنسّق" مع ابن عمّي المحامي كمال القاسم (رحمه الله).. ولعلّ النواوي يبحث لي الآن عن شخص آخر "أنسّق" معه بعد وفاة ابن عمّي الذي يعلم الناس الناس أنّ خلافي السياسي معه كان واضحا، غير أنه كان حضاريّا، بعيدا عن الغوغائيّة النواوية، ولذلك فلم يُشهر عليّ سيفا ولم أشهر عليه خنجرا.. تحاورنا، كما يفعل الناس الناس المتحضّرون، عبر وسائل الإعلام ومن على المنابر، وباحترام يليق بالناس المحترمين.

ويلبس هذا النكرة الجاهل عباءة الأكاديمي والناقد الأدبي، فيحتجّ على الدول العربية التي تُدرّس قصائدي في مناهج التعليم العربية، ولعلّ

خير ردّ على هذا المشّاء بالنميمة المُفسد بين الأحبّة هو التذكير بما روي عن الرسول العربي الكريم: " قال ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: شراركم المشّاؤون بالنميمة المُفسدون بين الأحبّة، الباغون العيوب.. ".

ويظلّ عزاؤنا في يقيننا من أنّ حفنة من الضّالين المضللين من هذا الطراز، لن تقوى على تشويه الحبّ الكبير الذي يربطنا بأمّتنا، ويربط هذه الأمّة بنا. الحب الكبير والاحترام العميق المتبادلان بين الشاعر وأمّته وبين الأمّة وشاعرها هما أسمى وأرقى وأغلى من نميمة النّمامين وظنون الظنّانين، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: " اجتنبوا كثيرا من الظنّ، إنّ بعض الظنّ إثم ".. صدق الله العظيم، وكذب المشّاؤون بالنميمة المُفسدون بين الأحبّة.

ويجيء دور النصارى (المسيحيين) ليأخذوا قسطهم من التحريض الأرعن الدموي.

فالنصارى حسب رأي النواوي هذا " هم وراء كل نكبة ألّت بأمتنا في تاريخنا المُعاصر، بدءاً بهدم الخلافة الإسلامية، ومرورا بسيطرة اليهود على فلسطين، وانتهاءاً بمؤامرة الدويلات الطائفية ".

وفي مطلع هذا الباب أيضا يسقط الكاتب في التناقض المضحك، ذلك أنّه يشنّ هجوما كاسحا على النصارى (المسيحيين) الذين تمتعوا بالامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية، غير أنّه لا يجد تعبيرا أقسى من " الأسف " حين يتحدّث عن الدولة العثمانية نفسها التي " فتحت أبوابها أمام المُبشّرين وسمومهم في عهد سليمان القانوني ".

ومحمد علي باشا، صانع نهضة مصر الحديثة ليس سوى " صنيعة " من صنائع فرنسا، لأنّه حارب السلطنة العثمانية. أمّا سلطنته هذه فلم تكن " صنيعة لإنجلترا والنمسا وغيرهما من الدول " الكافرة " التي دعمت العسف العثماني ضدّ شعوب الشرق العربي المتطلّعة إلى الحرية

والثقافة والتقدّم.

ويندّد الكاتب بابراهيم باشا الذي دلّل "المُبشّرين النصارى"، لكنه لا يجد مبرّرا لامتداح الدروز الذين كانوا أوّل مَن ثار على إبراهيم باشا، ولم يجد فيما بعد مبرّرا لامتداح الأمير شكيب أرسلان (الدرزي) الذي كان من أكبر دعاة "الخلافة الإسلامية".

يعيب النواوي هذا على النصارى (المسيحيين) كونهم تعلّموا في المدارس التبشيرية وخرج من بينهم "قادة الأحزاب والحركات القومية والوطنيّة التي ترفع شعار العلمانية، وتُنادي بالانفصال عن الدولة العثمانية".. ومع أنّ الانسان العاقل والمؤمن لا يرى في هذا الأمر غضاضة وإساءة للإسلام وللمسلمين، فإنّه لا يستطيع إلاّ أن يلفت نظر النواوي هذا إلى أنّ نسبة أبناء السنّة الذين رفعوا هذه الشعارات كانت أكبر من نسبة أبناء الطوائف الأخرى.

وفي أشعار الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (السنّي) والشيخ يوسف النبهاني (السنّي) من الإدانة للسلطنة العثمانية ومن الدعوة إلى الوحدة العربية، هنا في بلادنا، ما يُقيم الدليل على أنّ العثمانيين لم يُميّزوا في اضطهادهم وقمعهم بين سنّي وشيعي ودرزي ومسيحيّ، بل صبّوه على العرب قاطبة، فأساءوا إلى فكرة الخلافة الإسلامية، هم بأيديهم، ولم يتركوا للعرب مجالا سوى مجال الثورة والتمرّد.

وفي إطار تناقضاته فانّ الكاتب يعترف بأنّ الباب العالي العثماني "قبل أن تكون فرنسا صاحبة الحل والعقد في بلاد المسلمين"، لا بل كان يقدّم أمرها على أمره وهو لا يُحرّك ساكنا.. وإذا كان هذا هو شأن الباب العالي فلماذا يصبّ النواوي هذا حقده على "الأبواب الواطئة" ويختلق المَعاذير "لبابه العالي"؟!

ويعيب الكاتب على المسيحيين أنّه ظهر "منهم الأدباء والمدرّسون والمفكرون والصحفيون".. فيا له من عيب عظيم!! وأين هذا النواوي

من عمرو بن العاص والمحبّة الشهيرة التي ربطته بيوحنا النحوي على طريق العلم والأدب والخير والإبداع؟

وإذا كان الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية يتحدّى فرنسا، فانّ النواوي يفترض على الفور أنّ بشارة الخوري يفعل ذلك إكراما لعيون بريطانيا!!

ويزجّ الكاتب بشكري القوتلي ورياض الصلح وسواهما من الزعماء السنّيين الذين دعموا بشارة الخوري، في عداد الباحثين عن رضا بريطانيا!!

ومن بهلوانيات النواوي أنّه "يستشهد" بالشاعر القومي رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) لمهاجمة المسيحيين، وبعد أن يستنفد الشهادة يعود فينقض على هذا الشاعر الوطني الكبير، "فقد علمت من أحد أصدقاء الشاعر أنّه كان من المُتعصبّين ضدّ المسلمين، ويتظاهر بالاعتدال والحياد من أجل إخراج المسلمين عن دينهم، كما فعل بشارة الخوري وفارس الخوري وميشيل عفلق وغيرهم من نصارى قومية لورنس، ومن المؤسف اهتمام القائمين على مناهج التعليم في البلاد العربية بشعر رشيد سليم الخوري حيث فرضوا على الناشئة حفظ قصائده رغم ما فيها من كفرصريح.. ترى هل نحن أمّيون جهلة، ولا نفهم الوطنيّة إلاّ من صليبيّ ضالّ؟!".

ثم يجيء دور "اليسار الأمريكي في المنظمة -جورج حبش ونايف حواتمة ومنظمة الصاعقة السورية".. وتتبع هذا الكلام، مرّة أخرى، موجة من الهلوسات الهستيرية عن مؤامرات ومخططات يختلط حابلها بنابلها على "أرض" من الخيال المريض، أين منه الخيال العلمي؟!

ويدعو المؤلّف "الشباب" إلى تعلّم الخطط والمؤامرات والأساليب التي "رسمها وسار عليها: اليهود والنصارى والدروز والنصيريون والشيعة خلال مائة عام".

ومن ثمّ يُقدّم موعظته إلى المجاهدين "إنّ المجاهدين المسلمين لا يقبلون

أن يلوّثوا صفوفهم بدرزي أو نُصَيري أو شيوعي أو نَصراني واحد".
وهنا يتّضح الهدف الأساسي من هذا الكتاب المَشبوه: تَمزيق وحدة العرب والمسلمين وضرب قوتهم التاريخية الكامنة في تضافر الجهود، وتركهم فرائس سهلة ضائعة بين ويلات التعصّب الطائفي الذي طالما نفَذت عَبره خيول الغزو الأجنبي، وبين الانشغال عن العدو الحقيقي (الاستعمار الأجنبي) بأعداء وهميين هم الأخوة والجيران والأهل وأبناء القومية الواحدة المتعرضون جميعا بلا تمييز إلى كوارث الاحتلال الأجنبي والإذلال القومي والديني والنهب المنهجيّ لخيرات أوطان هذه الأمّة المَغلوبة على أمرها.
إنّ هذا الكتاب دعوة صريحة إلى الفساد في الأرض والإفساد بين العباد الذين شاء لهم الله أن يكونوا واحدا في تعدّديتهم، عديدا في توحيدهم. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز (..ولا تبغ الفساد في الأرض، إنّ الله لا يحبّ المُفسدين).. صدق الله العظيم.
وليكن واضحا أنّ "الفكر" الطائفي الظلاميّ المبثوث في كتاب النواوي هذا هو فكر فئة ضالّة هامشيّة لا تُمثّل روح الإسلام ولا تعكس رأي السنّة. وتُحاول هذه الفئة الضئيلة أن تفرض رأيها على عموم المسلمين مثلما تُحاول أن تُعمّم خطأ الفرد على عائلة أو طائفة أو شعب..
ومن المفيد للقارىء أن نُقدّم له نموذجا من نماذج التوجّه العَقلانيّ المَنطقيّ الواعي الذي يدحض تخرّصات "المدرسة" النواوية وينقضها من أسّها. وهذا النموذج هو مقالة نشرها الأستاذ تيسير اغبارية في نشرة "الموقع" في كانون الأول ١٩٩٠:

لن نلعن الملائكة بسبب الشيطان

بقلم: تيسير خالد اغبارية

* الجنود الدروز في حرس الحدود والجيش يشكّلون ١,٣٦٪ من

الطائفة.

* ازدياد المُطالبة الشعبية بالغاء قانون الخدمة الإجبارية.

* حملات من الإغاثة والتّبرّع بالدم والدواء من الطائفة الدرزية.

* لجنة المُبادرة الدرزية شعار نجح واقعا وكمّا وكيفا.

لست هنا بصدد الدفاع عن الطائفة الفلسطينيّة الدرزية.

لست هنا بصدد التبرير أو التخفيف من حدّة الوضع القائم.

لست هنا لألتمس الأعذار لَن فعل ويفعل السبعة وذمّتها من أبنائها.

لست.. لست..

إذا وضعنا العواطف جانبا. وإذا أبطلنا الحكم على الوقائع والمعلومات من خلال قنوات الشعور والعاطفة رغم أهميتها، وجلسنا لنُحكّم المنطق والعقل والمصلحة الحقيقية لاشكّ أنّنا نستطيع أن نضبط العواطف دون انفجارها بصدق أو غير ذلك ودون اللجوء إلى الأقراص المهدّئة.

ما يحصل في المناطق المحتلة من نحر الفلسطينيين على مذبح الحرية، ما حصل في باحة الأقصى الشريف ومؤامرات القتل والسجن وهي قوت الاحتلال اليومي، أمور يرفضها كل منطق وكل عاطفة وكل انسان يحمل القيم الوطنيّة والانسانية.

شهداء أبرار سقطوا دفاعا عن الأرض والمقدسات، دون حساب نفس وأمر طبيعي أن تتوافد جماهيرنا الفلسطينية على اختلاف طوائفها لتُعزّي أنفسها، وطبيعي جدا أن تتوافد وفود يهودية تقدميّة وإنسانيّة ترفض جرائم الاحتلال، وكم أحسن ويحسن أهلها استقبال الوفود المُشجّعة والمُعزّية والتفريق بين السلطة والإنسان.

حدّثني الكثيرون أن قوّة حرس الحدود التي ارتكبت الجريمة في الأقصى كان فيها اليهودي والمسلم والمسيحي والدرزي، فلماذا الغضب على الدرزي لوحده! ولماذا يخرج غضبنا على الطائفة الدرزية كمجموعة؟!

قد يُرافق كلماتي بعض القرّاء بغضب ولكن لاشكّ بأنّ المعلومات التي سأعرضها قد تُساعد على فهم الحقائق، وعلى سبيل المثال كلّنا يعرف أنّه يوجد من فلسطينيي الأراضي المحتلة مَن يتعاونون مع الاحتلال. إذا هل كل شعبنا في المناطق المحتلة أو حتى في البيت أو العائلة هم متعاونون مع الاحتلال؟؟ ومع هذا فإننا هنا فلسطينيي الداخل ننظر بفخر واعتزاز إلى شعبنا الفلسطيني قيادة وجمهورا في المناطق المحتلة. والذين يكتبون الحرية بدمائهم على أعظم شمس وفي أحلك الظروف، ويكتبون اليوم تلو أخيه وعيا قوميا ووطنياً وإنسانياً في ظروف تنحر الإنسانية فيها على مذبح الشر أمام العرب والمسلمين واليهود والعالم. إعتمادا على نشرة "مواقف" التي أصدرتها "لجنة المبادرة الدرزية" ومصادر أخرى، إليكم بعض المعلومات لتوضيح الحقائق الأساسية:

* في عام ١٩٥٦ وبناءً على موافقة ١٦ شخصية تقليدية درزية وبالتعاون مع حكومة إسرائيل تمّ فرض التجنيد الإجباري على أبناء الطائفة الدرزية ودون موافقتهم أو الرجوع إليهم، ومقابل ذلك فانّ ألف درزي وقّعوا على عريضة يطلبون بها إلغاء القانون في نفس العام. وأن ثمانية آلاف طالبوا بالغاء القانون عام ١٩٧٨.

وتتوّج هذا النضال الشعبي باقامة لجنة المبادرة الدرزية الوطنية الفلسطينيّة والتي بدأت كنواة صغيرة سرعان ما أخذ يتعاظم أثرها كمّاً وكيفاً.

ويترأس هذه اللجنة الشيخ والمربي جمال عبّاس معدي، وتُدير هذه اللجنة نضالا قاسيا ضدّ قانون التجنيد الإلزامي، ونضالا من أجل توثيق الآلام والأماني الدرزية مع شعبها الفلسطيني، وترفض محاولات فصل الدروز عن شعبهم، وتسعى لإيصال الصورة الشعبية الحقيقية عن الشباب الذين يرفضون الخدمة. الأهالي الذين يتماثلون مع أماني شعبهم الفلسطيني ويؤكّدون هذه الهوية. وعلى سبيل المثال فهناك حوالي الألف شاب من يركا– يحملون شهادة مجنون كوسيلة للتخلّص

من الخدمة العسكرية. وحوالي الألف شاب من دالية الكرمل تديّنوا كوسيلة لرفض الخدمة العسكرية. وقبع في سجون السلطة من شباب البقيعة الرافضين الخدمة العسكرية ما مجموعه خمسمائة عام من السجن.

وفي خلال فترة وجيزة من سنة ١٩٨٩ كان في سجن عتليت ٦٨ شابا يقضون محكوميات مجموعها ٣١سنة منهم ١٣ من عسفيا لرفضهم الخدمة العسكرية.

في سنة ٧٣/ ٧٤ فرضت السلطة الإقامة الإجبارية على ٢٦ جنديا مُسَرّحا في البقيعة وحدها.

يبلغ تعداد حرس الحدود والجنود بالجيش من الدروز أقل من تسعمائة جندي فقط، في حين يتخيّل الكثيرون أنّهم آلاف أو عشرات الآلاف؟؟!! وإذا أخذنا تعداد الدروز فانّه يصل إلى ٦٦ ألف فقط، وهذا يعني أن نسبتهم من الطائفة تساوي ١.٣٦٪.

ممّا سلف نرى أنّ بُغية التقليديين والمتصهينين الدروز بارضاع الطفل الدرزي عبر مصّاصة حليبهم هوية غريبة، تفشل فشلا ذريعا أمام حليب الأم الفلسطينية الدرزية، وانّ مَن تعلّلوا بحِلْف دم جديد، وقومية جديدة، وتراث جديد، ومساواة جديدة، ودولة جديدة، يقفون بلا سراويل أمام طائفتهم.

صودرت وما تزال أراضي القرى الدرزية، وميزانياتها أبخس من ميزانيات المدن والقرى العربية المُناضلة لحقوقها، وأوضاعها مُزرية لا زراعة ولا صناعة. ونسمع أخيرا الكثيرين من مُثقفي الدولة الدروز يصرخون " نحن عرب في الحقوق ويهود في الواجبات " ، وجنة عدن التي وعدوا بها تُصبح جهنّم قاتلة.

ونظرة عى الواقع اليومي، فأهل المناطق المحتلة يشهدون عشرات حملات الإغاثة من الطائفة الدرزية ومن كل البيوت الدرزية، وبقيادة

المبادرة الدرزية. والإحتلال رأى بهذا خطرا ماحقا، فبعد ثلاثة أشهر من الإنتفاضة تمّ إصدار منع للشيخ جمال معدي من دخول المناطق المحتلة وملاحقة غالب سيف عضو سكرتارية اللجنة بشتّى الوسائل. والجميع يرى عشرات الشبّان الدروز يأتون للتبرّع بالدماء والأدوية، الجميع يعرف عشرات القادة والكتّاب والشعراء والصحفيين من الطائفة الدرزية الذين يقفون في مقدّمة الصف الوطني، وعلى سبيل المثال لا الحصر: الشاعر سميح القاسم، المربي جمال معدي، نايف سليم، نبيه القاسم، محمد نفّاع، غالب سيف، سلمان ناطور، رفيق حلبي، حسين مهنا، سهيل قبلان. وأستميح الباقين عذرا.

بناء على الأضواء الكاشفة السريعة فالحقد يكون على الإحتلال برمّته وليس على طائفة أو قومية بسبب سلوك أفراد أو سلطة.

حرس الحدود فيه اليهودي والدرزي والمسلم والمسيحي وجميعهم جند الإحتلال ويُمثّلون الإحتلال فقط، وليسوا رسُلاً من قبل شعوبهم أو طوائفهم، كيف الأمر بالطائفة الدرزية التي تعلن الخزي والعار من مُرتكبي الموبقات الدروز على لسان شيخها أمين طريف وعلى أرض الواقع برفض الخدمة بشتّى الصور والوسائل.

هناك حلف حقيقي هو حلف (إسلامي، مسيحي ودرزي) ويهودي، هذا الحلف الذي يرفض الاحتلال جملة وتفصيلا، حلف يرفض أعمال القتل والإجرام ضد العُزّل الذين يُناضلون من أجل الإستقلال. هذه الحقيقة يعيها شعبنا الفلسطيني وأثبت ذلك أنّه يعي أنّ الشيطان يتحمّل مسؤوليّة أفعاله دون الملائكة، فلا يُمكن أن نلعن الملائكة من أجل الشياطين.

إشارة:

كاتب المقال هو كاتب سنّي معروف من مدينة أم الفحم، ولا نستغرب

أن يُقدم النواوي على القول: إنّه درزي. كمافعل مع الكاتب توفيق فيّاض، في كتابه التزويري.

كلمة أخيرة:

لقد قلنا في موقع سابق من هذه الرسالة والتي هي من قبيل توضيح الواضح، إنّ الرد التفصيلي على كتاب النواوي هذا يستدعي وضع كتاب في حجم كتابه، بأقل تقدير. غير أنّنا واجدون في القليل من الكثير ما يكفي لإقامة الدليل على ضحالة هذا الكتاب التلفيقي التزويري التحريضي المَشبوه.

إنّه كتاب جاهليّ بكل معنى الكلمة، ونحن الذين نَذرنا أنفسنا لخدمة هذه الأمة ولإنارة طريقها بنور الدم والعلم والحقّ والإيمان، لن نسمح للمتطاولين بأن يعتدوا على دعوة الوحدة ورسالة التكافل والتآلف والمَحبّة والجهاد، ولن نسمح باشاعة البلبلة والتضليل في صفوفنا المتعرضة لأخطار جسام. وإنّنا لندعو أشقاءَنا المؤمنين المتنورين من كل الطوائف والتيّارات إلى رصّ الصفوف في مواجهة هذه الحملة الطائفيّة الشعوبية الشرّيرة.

قوتنا في وحدتنا، فلندافع عن هذه الوحدة..

ولنضع دائما نصب أعيننا، قول السّلف الصالح: "الدين لله والوطن للجميع".. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(نُشر على أربع حلقات في جريدة "الإتحاد")
وفي كتاب "الدروز فِي إسرائيل، في البعد التاريخي والراهن"،
للأستاذ نبيه القاسم -طبعة ودار نشر الوادي -حيفا- ١٩٩٥)

هذا الخراب.. ذلك الحلم!

تتاح لك المشاركة في مهرجانات ومنتديات عربية كثيرة، ليس بين المحيط والخليج فحسب، بل في منافي العرب ومهاجرهم ايضا، حيث تتاح مساحة على يابسة، وتلاحظ ان زملاءك المدعوين من مختلف أرجاء الوطن العربي يفرحون بك ويحتفون بحضورك ويستدرجونك الى كلام كثير، ليس في موضوع الشعر إذا كان ذلك مهرجاناً شعرياً، ولا في موضوع الفكر اذا كان ذلك منتدى فكرياً، ولا في موضوع السياسة إذا كان ذلك لقاء سياسياً، بل تراهم مستعجلين في إثارة الحوار حول كل هذه المواضيع، متداخلة، متشابكة متصلة حتى لكأنّ هناك ساعة رملية يسيل وقتها، ولا يشاء أصدقاوك وزملاؤك تفويت ثانية، حبة رمل منها، بلا سؤال وجواب. ويتملكك إحساس غامض بأن أصدقاءك- أشقاءك هؤلاء مسكونون بقلق دائم التوفّز، ولا يتوقعون لقاءً آخر قريباً لاستكمال الحديث والإحاطة الشاملة بكل نقاط البحث المطروحة بوتيرة لاتتناسب مع عمق القضايا وتشعّب الهموم المفلوشة على منصة المؤتمر أو مائدة الكافيتيريا، مثل أوراق اللعب.

وتلاحظ الفارق البارز بين ما يشغل زملاءك الغربيين، في أوروبا وأمريكا، من مسائل البيئة والفضاء الكوني والثورة التكنولوجية وثورة الإتصالات والمعلوماتية والصناعة الحديثة التي تحبس الأنفاس، وبين ما يشغل زملاءك أشقاءك العرب من هموم أولية، كالحرية والإستقلال والهوية القومية والدين والمجتمع والفقر والأمية والتخلف والجوع والأوبئة والإحتلال والقمع والمشروع القومي الديمقراطي مقابل المشروع الديني وغياب الوضوح وانعدام الاستراتيجيا في المشروعين

معاً.

وإزاء كُلّ ذلك فإنك تُمسك بذاتك متلبساً في حالة ارتباك داخلي وحوار جواني بين رغبتك في متابعة مشروعك الشخصي الخاص، وهو مشروع شعري صرف، وبين إحساسك بأن مشروعك الذاتي هذا لا يملك سبيلاً للانفصام عن أرضيته وخلفيته وبيئته ومناخه، دون أن تتخلخل أسسه ويتصدع بنيانه وتغيب جهاته. وتدرك، من ثَمّ، أن علاقة مشروعك الجدلية بمحيطه وعلاقتك التبادلية التفاعلية بأهلك وناسك ومجتمعك وشعبك وارضك- كل ذلك يوصلك في النهاية الى ما توصل اليه زميل قديم لك في الهم الإنساني، من أنك لا تملك قفا ثور لتديره للناس، ومن هنا فإنك تلقي نفسك متورطاً من جديد، بطاقة أعلى او أدنى، في شؤون الكون الذي أنت منه وفيه بقدر ما هو منك وفيك، وتتجذّر مرة أخرى قناعتك بوحدة الوجود وعبثية الفصل بين الشعري والسياسي والثقافي والإقتصادي والحضاري والبيئي والأرض والإنسان والماء والفضاء والتراب والهواء والشجر والأطفال والواقع والحلم.

في إدراكك أن كل شيء يبدأ من نقطة-مركز-محور وأن نمو الأشياء يأخذ شكلا دائرياً وأن أشعة الضوء وخطوطه المستقيمة هي أجزاء الدائرة الضوئية كما أن أمواج الأثير تُشكل دائرة الصوت. وبالمنطق نفسه، وبما يكاد يكون قانوناً فيزيائياً، فإنك تعتبر الفرد- الذات نقطة الدائرة الإجتماعية ثم القومية ثم الإنسانية ثم الكونية. وعليه فإنك تبدأ بنفسك سعياً وراء إدراك ذاتي تام وواضح، منطلقاً من بعد الى السّوى، الآخر، الآخرين، البشر والأشياء والمفاهيم. بكلمات أخرى فأنت مُطالب بتكرار الأسئلة القديمة: من أنا؟ ماذا أريد لي؟ ماذا أريد للكون؟ ماذا يُطلب مني؟ ما هي حدودي؟ ما هو مقدار تداخلي مع المحيط؟ ما هي قدراتي في محاولة الوصول الى إجابات شافية وصحيحة ومجدية؟

هنا، في هذا الوضع بالذات، تطفو على سطح الذهن، والوجدان أيضاً، مسألة الثقافة المطلوبة لطرح الأسئلة وللبحث عن الإجابات، في آن. وتكتشف على الفور أنك ملزم بالتعامل مع الثقافة في نسبيتها. وتتذكر ما رواه من هم أكبر منك سناً عن الرثائيات التي كانوا يقولونها في جنازات بعض "المثقفين" من أبناء القرية، مثل:

حيف، باطل، يا خسارة

كان قاري كان كاتب

كان يعرف على الساعة.

ومعنى الكلام، أن المثقف، آنذاك، كان يكفيه من أجل الحصول على اللقب، أن "يفك الحرف" ويكتب استرحاماً أو عريضة أو وصيّة، وأن "يعرف على الساعة!" وتتأمل التحوّل الهائل في المعايير والمقاييس والمفاهيم بين ذلك الوقت وبين وقتك الراهن حيث لم يعد معنى الأمية ألا تُتقن القراءة والكتابة -كما نعتبرها نحن- بل أصبح الأمي، في اليابان مثلاً، ذلك الذي لا يجيد استخدام الكومبيوتر! وهكذا فإنك تكتشف مدى أميتك أنت وتخلفك أنت بالمقارنة مع "جارك" الياباني الذي جعلته ثورته التكنولوجية شريكاً هاماً في حياتك اليومية مع أنك مجرد مستهلك لإنجازات تلك الثورة ولست عضواً في ناديها!

وتتساءل عمّا إذا كان ذلك الياباني قد اكتفى بإنجازاته المعرفية العلمية التكنولوجية، وانغلق على ذاته، فتكتشف ان التكنولوجيا اضطرته الى البحث عن السوق وأن البحث عن السوق ألزمه بالتعرف على "الزبائن" وثقافاتهم وحضاراتهم وأذواقهم وميولهم وعقائدهم، الأمر الذي جعل العلم جزءاً من الثقافة وجعل ظاهرة المتعلم غير المثقف تكاد تكون محصورة في المجتمعات غير المصنعة وغير الإنتاجية.

وتنتبه الى الإنقسامات الأميبية في المجتمعات جراء التفاوت التكنولوجي -الصناعي- الإقتصادي، وتتذكر ما قاله المثقف العربي المصري

الدكتور سمير أمين قبل أعوام في منتدى فكري شاركت فيه، من أن تقسيم العالم الى شمال وجنوب وعالم أول وعالم ثان وعالم ثالث ليس تقسيماً ثابتاً بل هو متغير باستمرار تبعاً للتغيرات الإقتصادية في هذا القطر او ذاك، بحيث أنه إذا جاز اليوم تصنيف المملكة العربية السعودية في خانة العالم الثالث فإن التفاوت الاقتصادي بينها وبين مصر يجعل مصر في خانة العالم الرابع. ومن ثم فإن السودان أو جيبوتي سيُصنّفان في العالم الخامس او السادس وهلُمجرّا!!

وتعاود البحث عن وسيلة أو مقياس لتعريف المثقف والثقافة فتقارب جملة من التعاريف لكنك تحجم عنها وتكتفي بالزعم بأن المثقف هو ذلك الشخص الذي يملك مقداراً من المعرفة والتجربة يساعده في فهم ذاته وكيانه وبيئته ومجتمعه، ويمدّه بطاقة دفع معينة باتجاه التغيير، تغيير ما يعتبره سلبياً وعائقاً على طريق التطور في حياته وحياة شعبه والمجتمع الدوّلي كله، وهذا يعني أن المثقف، بهذا الفهم للثقافة، هو بطبيعة الحال وبشكل مفروغ منه، إنسان ملتزم، وقد يعرب عن التزامه ويمارسه من خلال برنامج معين، برنامج حزب أو حركة أو ثورة أو دولة، أو من خلال موقف عام أوسع حدوداً وأكبر شمولية. ولعل الصدامات المتكررة بين المثقفين، والمبدعين بشكل خاص، وبين الأطُر الحزبية والحركية والرسمية، تعود الى تناقضات ظاهرية او تفسيرية او اجتهادية، وربما نصيّه أيضاً، بين البرنامج والموقف. وفي حالات معينة فإن الصدامات تنجم عن خروج الإطار من حين لآخر عن النص الفكري البرنامجي لمقتضيات تكتيكية، او انطلاقاً من تفسيرات مغايرة لرؤيا المثقف والمبدع والتي تقارب المثالية او تتورط فيها. ولا تقبل، من وجهة نظرك، الزعم بالتناقض الأبدي بين الذات الفردي والذات الجماعي، اولعلك تطلب تعاملاً أكثر عقلانية مع مسائل العاطفة والهوى والميل والقناعات، بما يكفل حالة من التوازن والتجانس والتفاهم بين

الذاتي والعام بين الفرد والجماعة، لمصلحة مشتركة لا يموت فيها الذئب ولا تفنى الغنم، وبعيداً عن مقولة المساواة التي لا يستسيغها المبدعون بشكل عام، وإن كانت أمراً وارداً بالحسبان لدى السياسيين البراغماتيين والثوريين على السواء.

ويسوءُك ما تلحظه من تناقض بين الوعي المعلن والرواسب الكامنة في مسلكيات بعض المثقفين الذين تقول ألسنتهم شيئاً وتفعل أيديهم شيئاً آخر، كثيراً ما يكون نقيضاً للموقف الثقافي الذي يجهرون بالإنتماء إليه وتبنيه.

من هؤلاء نفرٌ قد تصادفهم في كل فعالية من أجل تحرير المرأة، لكنك تلاحظ أنهم لا يصطحبون زوجاتهم أو شقيقاتهم أو بناتهم الى ذلك النوع من الفعاليات، حتى لكأن لسان حالهم يقول: الحرية للمرأة؟ نعم، إنما ليس لامرأتي أنا!

وقد يُلقي بعضهم المحاضرات ويدبج المقالات ويعد الدراسات عن مساويء التعصّب العائلي والطائفي والإقليمي، لكنه يسقط في أول اختبار. وحين تطالبه بأن يحب عائلته دون أن يسيء الى العائلات الأخرى ودون أن يناصبها العداء والكراهية فإنه يسرع الى اختلاق كل الحسنات والإيجابيات لصالح عائلته كلها وكأنها فرد واحد، وفي الوقت نفسه فإنه لا يترك عيباً أو نقيصة او سوءة إلا ويلصقها بالعائلات الأخرى، وكأنها هي أيضاً فردٌ واحدٌ، وليست مجموعة من الأفراد فيهم الخيرٌ ومنهم الشرير، وهكذا مع طائفته وشعبه وإقليمه وأمته.

وتتذكّر لقاء بمجموعة من المثقفين العرب في فرنسا، وتُصغي اليهم وهم يُقيّمون الأنظمة العربية بلهجة رسوليّة عالية... وفجأة يقول أحدهم بضرورة التخلّص من " النظام العلوي الفاسد " في سوريا. وتسأله بهدوء عما إذا كان ذلك النظام " فاسداً " لكونه علَوياً أم لأسباب أخرى، فيُصرّ على أن " علَوّية " النظام هي أصل الفساد. فتسوق له الأمثلة على

أنظمة أخرى لا تقل فساداً عن النظام السوري ان لم تزد عليه بمقادير رغم أن قادتها ليسوا من العَلَويين، فيتملص ويتهرب الى إدعاءات ساقطة وباطلة تُخرجه في نظرك من شريحة المثقفين، وتقول إن نظريته شديدة الخطورة لأنها تفترض شرعية السلطة في طائفة دون غيرها، الأمر الذي يتنافى مع الشورى والديموقراطية والثقافة والعروبة والإنسانية، فيُبلِّم ويصمَ ويصمَمُ مستقتلاً على الجمع بين تخلّفه وبين صفة المثقف.
وتتذكر أنك جَرُؤت في إحدى العواصم العربية على إنتقاد حالة تراكم الأوساخ والإهمال الشديد في صيانة المواقع الأثرية في تلك العاصمة فما كان من بعض أبنائها إلاّ أن إتهموك بأنك "تشتم البلد" وتحولت في أنظار هؤلاء الى عدوّ لدود!
وتقول لمثل هؤلاء إن الحب لا يلغي ضرورة النقد وإن عين الرضا لا ينبغي لها أن تكون كليلة عن كُل عيب، وإن الحب الصادق والحقيقي ليس أنه لا يقبل إخفاء المساويء، فحسب، بل أنه يُصرّ على ضرورة إصلاحها، وإذا تجاوزت المجاملة حدودها فإنها تؤدي الى عكس ما تعنيه وما يعنيها.
وبين التعصّب العائلي والديني والمذهبي والإقليمي تحضرك قصص وأحداث وحكايات لا حصر لها، تتذكر على سبيل المثال ذلك المساء اللندني البارد يوم دعتك أسرة عربية هناك للعشاء في مطعم عربي، وتسمع من المائدة المجاورة حواراً ساخناً بين رجلين يتكلمان بلهجة قُطر عربي منكوب بالطائفية ويجري الحديث في الأوساط الامبريالية عن تقسيمه الى ثلاث دويلات: شيعية وسُنية واثنيّة عرقية.. ولم يكن الحوار بين جاريك في المطعم عن وضع بلدهما المنكوب بل كان واضحاً أن أحدهما متحمس لمحمد عبد الوهاب والآخر متحمس لفريد الأطرش. وراح كُلّ منهما يعدد مناقب فنانه المفضل، وفجأة صاح أحدهما "يكفي أن فريد الأطرش درزي!" فأفحم صديقه أيّما إفحام، وضحكنا نحن

مع تعقيب أحدنا: بهكذا مقاييس فنية، لا بالله انتصرنا على إسرائيل!!
وحين تستعرض حياتك الشخصية فإنك تكتشف قدراً من " طرائف "
التعصب يكفي لإمدادك بمادة مجلد ضخم، وتلاحظ من خلال قراءاتك
ومراجعاتك ان التعصب الديني والمذهبي والعشائري يكاد يكون ملازماً
لمراحل الإنحطاط السياسي والتخلّف الثقافي والإقتصادي لا في أمتك
أنت فحسب بل لدى جميع الأمم.
ويوجعك هذا الخراب... لكنك لا تتخلى عن ذلك الحلم.

٢

نظراً لما تبلور في ذهنك ووجدانك من قناعات، عبر عقود العمر المشحونة
بالتجارب، المشحوذه بالمحن، فإنك تطمح الى حالة تستطيع بها أن تتقدم
الى العالم بصفة الشاعر العربي الإنساني، مستمداً التعريف بك من
لغتك- أداتك، ومن همك الذي تؤمن في قرارتك بأنه تجاوز حدود العائلة
والطائفة والدين والشعب والوطن والأمة، ودخل مدارات الهم
الإنساني-الكوني، دون انقطاع عن منابته الأولى وجذوره الأصلية.
هذا ما تريده حقاً وبصدق، وربما بكامل الحق، بيد أنك تصطدم من
حين لآخر بعناصر وجهات تشدّك الى الخلف وتحاول حبسك في
الخانات والدوائر الصغرى التي سبق لك أن ملّعت حدودها وتخطّيتها
باقتحام كبير، تراه مبرراً تماماً.
ويغيظك مثل هذا التوجه، لكنك لا تتنازل أمامه ولا تنحني له، بل تتحدى
وتتصدى مذكراً الأغلبية والأقلية على السواء بأنهما لا تملكان الحق
في تحديد المصائر وفق أهوائهما، ولا يجوز لهما فرض معايير الإنتماء
الأسري او المذهبي والوطني على معاييرك أنت،، وتحس بأنك تمتلك
قدراً من الموضوعية يكفي لتنبيه عشيرتك وقومك وأمتك والناس جميعاً
الى ما تراه حقاً وعدلاً وصحيحاً.

من ذلك، ان الأمة العربية هي أمّة يشكل المسلمون أغلبيتها الساحقة، ويُشكّل أهل السنّة أغلبيّة ساحقة في الأغلبيّة، لكن لا ينبغي أن يغيب عن ذهن أحد وجود مذاهب أخرى صادرة عن الأصول الإسلامية كالشيعة والعَلَوية والدُرزية والإسماعيلية والأحمدية، وسواها من المذاهب والفرق والطرق التي قد تلتقي في اجتهاد وتختلف في آخر دون أن يؤدي ذلك الى المواجهات والعنف وفتح الثّغرات والمنافذ أمام الإستعمار بكُلِّ أنواعه واتجاهاته ومآربه، لا سيما وأن المؤمنين حقاً ينبغي أن يثقوا بالله عز وجل، وبقدرته على إختيار فرقته الناجية. كما أن في العرب ملايين من المسيحيين من مختلف المذاهب، ومن حقهم أن يمارسوا حقوقهم الدينية والمدنية بلا عائق، احتراماً لتراث العرب القديم ولمباديء الإسلام وللعُهْدة العُمرية ولوحدة الأصل ووحدة الحياة ووحدة المصير. وبقدر ما تُطالب الأغلبية باحترام حقوق الأقلية، فإنك تطالب الأقلية باحترام حقوق الأغلبية ومكانتها ودورها، بما ينسجم مع روح التراث العربي والإسلامي من جهة ويتفق مع مفاهيم الديمقراطية الحديثة من الجهة الثانية.

وبمثل ما يتحتّم علينا، حرْصا على حاضرنا ومستقبلنا، أن نجد المعادلة المناسبة للعلاقات بين الأديان والمذاهب، فلا بُدّ لنا من معادلة أخرى مماثلة تُنظم العلاقات بين الإنتماء الإقليمي المرحلي وبين الإنتماء للوطن العربي الكبير من المحيط الى الخليج،وهو الإنتماء الباقي في المنظور التاريخي المستقبلي.

لقد لاحظت سابقاً حماس العرب لفريق رياضي يُحقق نصراً وتهليلهم لهذا " الفريق العربي " لكنك لاحظت أيضاً كيف أن العرب يعيدون هذا الفريق الى خانته الإقليمية إذا هو خسر المباراة... فالرابح هو دائماً عربي، أما الخاسر فهو ربما " مصري " أو " فلسطيني " أو " مغربي " وهلُمجرا... واذا برز في بلد أجنبي عالم أو فنان أو طبيب قلب من أصل

عربي فهو عندنا " عربي " . أما إذا ارتكب شخص من أصل عربي جريمة في كندا او تشيلي فإن النزعة الإقليمية تسارع الى البحث عن هويته الإقليمية، ويكف ذلك التعيس عن أن يكون عربياً ويتحول الى سوري أو لبناني أو خليجي او جزائري وهلمجرا.

لا شك في أن سنوات القمع والإحتلال الأجنبي والإضطهاد تركت تشويهات عميقة في الجسد العربي وفي الروح العربية، وأن ندبات الماضي تجد تعبيراً عن ذاتها في عقدة الشعور بالنقص إزاء الخواجا الأجنبي. حتى إن بعض المثقفين يؤثرون الإستشهاد في أحاديثهم بأقوال الفلاسفة والعلماء وأصحاب الأسماء الخواجاتية، حتى حين يكون في مقدورهم العثور على اقتباسات واستشهادات مماثلة، أو أفضل، في أقوال الفلاسفة والعلماء العرب، ويُكثر البعض من الألفاظ الأجنبية في حديثه ليوهمك بأنه "مثقف كبير" رغم أن الألفاظ الموازية والوافية بالغرض متوفرة في أغلب الأحيان باللغة العربية.

ومع ضرورة الإعتراف بالتفوّق الأوروبي والأمريكي والياباني في مجالات شتى فلا يجوز السعي الى خلق حالة عدائية مع إنجازات هؤلاء الآخرين لأن ثقافتهم في نهاية المطاف هي الإستمرار الطبيعي والوريث الشرعي لثقافتنا الأندلُسية، وليست نقيضاً كاملاً، كما يحاول أن يوحي أو يصرّح، بعض المنغلقين من مفكرينا المعاصرين. ومن مساويء هذا الإنغلاق أنه ينمي مشاعر الحسد والعدائيه والكراهية بدل مشاعر التحدي والمنافسة، وتنتقل عدواه الى المستوى الإجتماعي حتى في حلقاتك الضيقة، بحيث يصبح النجاح الذي يحققه ابن العائلة الأخرى او الطائفة الأخرى أو القطر الآخر سبباً للتهجم عليه ومحاولة تحطيمه وتقزيم نجاحه وتحجيم طموحاته، بدل التعاطف معه وتشجيعه على تحقيق المزيد من النجاح، ذلك أن الإنغلاق الكبير يؤدي الى إنغلاقات أصغر فأصغر بحيث تنحجب الرؤية القومية والإنسانية وتغيب الرؤيا

الوطنية والمستقبلية، ولا يظل أمام البصر سوى التحدي الصغير والمرضي الذي يُخرّب الأحلام الفسيحة ويُغيّب المرء في لُجة عمياء سوداء من الغرائز البدائية المفضية الى الخراب ولا شيء سوى الخراب.
وتنعكس آثار هذا الإنغلاق وأخطارُه على البيت والشارع والحيّ والبلد والبيئة، فتلاحظ كيف يهتم معظم الناس ببيوتهم فقط ويعتدون على الشوارع المحاذية ويسرقون منها بضع سنتيمترات أو موضعاً لدرجة في الطريق تشوّه المنظر وتُعرقل السير. الأمر الذي يشي على الفور بغياب الوعي بالمصلحة العامة وغياب الفهم بأن المصلحة العامة لا بد لها من أن تلتقي بالمصلحة الخاصة، إذا ما تحقق قدر معقول من الرقي بالمفاهيم القومية والإجتماعية.
وترى، بألم شديد، كيف أن غياب الوعي بالمصلحة العامة يُلحق ضرراً تلو ضرر بالآثار التاريخية وبالطبيعة والبيئة، التي لا يملكها الفرد بل هي ملك عام... وهكذا فإن قطف عابر سبيل وردة من سياج أحدهم فإن صاحب السياج يثور ويهيج ويزمجر أما اذ قطعوا غابة كاملة بجوار داره من أجل بناء مستعمرة جديدة أو لفتح كسارة أومحجر أو مقلع رخام، فإنه لا يُحرّك ساكناً، كما يقال، فالملك العام لا يعنيه، والبيئة خارج ملكيته الخاصة، لاتعنيه، والمصلحة العامة ليست عنده سوى مجرد شعار يليق بالدواوين والمناسبات وحلقات طقّ الحنك والكلام الفارغ.
إن الدعوة الى التثوير والتنوير والتغيير، تتطلب القدرة على مواجهة الذات وإعادة النظر في مفاهيمك الخاصة، وأنت مطالب بالشجاعة الأدبية وجرأة التفكير بصوت عال... على سبيل المثال فلعدّة عقود من الزمن وأنت تقسم الأنظمة العربيّة، مثلاً، الى تقدمية ورجعية... أما التقدمية فقد كانت في نظرك الجمهوريات التي تحكمها العسكرتاريا بينما تنحصر الرجعية في الأنظمة الملكية والأميرية والتقليدية.. وتدور الأيام فتكتشف أنك وقعت في مطب شكلي خطير، وتكتشف أن بعض

الأنظمة " الرجعية " حسب تقسيمك السابق أقل سوءاً بما لا يقاس من بعض الأنظمة التي حسبتها " تقدمية " وتكتشف أن بعض الملوك والأمراء التقليديين والوراثيين يصبحون حملاناً وديعة قياساً لبعض " الجمهوريين " الذي يُحوّلون أنفسهم، بقوة العسكر والمخابرات، وليس بقوة التقاليد الى " ملوك " جدد لا يفهمون من الملكية سوى ما تُتيحه من طاغوت وجبروت وانفرادية وتعال على الجماهير واحتقار للشعب واستغلال للوطن وعبث بمقدراته ومصالحه ومصائر أبنائه.

وتتذكر تلك الطرفة التي دارت بينك وبين أحد أصدقائك حين قلت له ساخراً من الأنظمة التي تلت الإستعمار في حكم الوطن العربي: "لقد خَوْزَقَنا الاستعمار مرتين... مرة حين اجتاح بلادنا... ومرة حين غادرها!" وتتذكر الضحك المر والذي هو " ضحك كالبكا " وأنت تستعرض مع صديقك تحولات الحياة المدنية والسياسية في الوطن العربي، وسقوط الإنسان العربي في وهدة الإغتراب في الوطن والرعب من السلطة والقلق من المستقبل الغامض والمرهون بإرادة هذا العسكري او ذاك الزعيم ووقوع خيرات الديار العربية فريسة بين الإحتكارات الأجنبية اللصوصية وبين لصوص الوطن الذين لا يتعاملون مع مقولة الإقتصاد الوطني إلا باعتبارها قناعاً لتحقيق اقتصادهم الشخصي على حساب الشعب والوطن والأمة والأجيال القادمة.

وتتساءل عن فُرص الخلاص من الخراب الراهن، فلا تجد في أية صيغة وفي أي سيناريو، منفذاً للخلاص في غياب الوحدة العربية، ليس بالمفهوم البسماركي الذي لم يعد ممكناً او واقعياً اوء مُجدياً في هذا الزمن المحكوم بتوازناته الخاصة المخالفة لطموحاتك، بل بالمفاهيم الديموقراطية وبالخَطط والمشاريع التي تقنع الإنسان العربي في كل مكان بجدوى الوحدة ومردودها الإيجابي عليه شخصياً، على مستوى معيشته وحريته وحقه في الحياة الكريمة والتقدم والتطور والإطمئنان

الى مستقبل أبنائه وأحفاده ووطنه وشعبه وأمته.
وعلى هذه الخلفية التاريخية، فإنك تجد مبرراً حقيقياً لتقوية الأطر الوحدوية القائمة مثل جامعة الدول العربية والأسواق المشتركة وتوحيد برامج التعليم ونظم السير والأمن واتحاد الأدباء والفنانين والأطباء والعُمال والمحامين وسائر النقابات فوق القطرية وذات الطابع القومي العام، كذلك فإنك تعثر على سبب للتفاؤل في إقامة الدورات الرياضية والمؤتمرات الموسيقية والمعارض الإقتصاديّة ولجان الشؤون العسكرية والسياحية والزراعية والعمرانية التي تحمل سمات قومية وحدوية واضحة. وتتابع من هنا الدعوة الى عدم الإكتفاء بهذه الأشكال والأطر وعدم القبول بجعلها بديلاً للوحدة العربية الناجزة والشاملة والكاملة، بل باعتبارها مداخل وسبلاً وأدوات لتعميق المفهوم الوحدوي والوعي بالضرورة الوحدوية، ليس على المستوى الوجداني فحسب، بل على المستوى الاقتصادي والإجتماعي والسياسي والعسكري والحضاري بشكل عام.
وتسكنك دائماً، قناعة لا مساومة فيها، بأن مصلحتك القومية وهمك القومي، قابلان للتفاعل وللعمل بما ينسجم قطعاً وبالضرورة مع مصالح الشعوب والأمم الأخرى، مع مصالح الإنسانية والعالم، ذلك أن وحدة الذات تمتد وتتسع دوائر دوائر في تداخل عضوي أبدي، الى مدى التحقق الكامل المتكامل لوحدة الإنسان والكون بارادة الإنسان وبمشيئة الله.

٣

يتمكّن منك مدّ خانق من الأسى، تصفعك على قلبك وعينيك سوداويةٌ غير لائقة. غير لائقة بالثُّوار المنذورين. يشحنك حزنٌ لاذع. لا تملك قدرة على البكاء، لا تُسعفُك قهقهةٌ هستيرية. ولا تستطيع الى الهروب سبيلاً.

أنت الآن كالمصعوق بضربة كهرباء تخُضّه وترجُّه وتُطوح به بين أطياف التاريخ القديم. تاريخك الشخصي، تاريخ أهلك وقومك وأمتك، وبين أشباح اليوم وكوابيس العصبيّة الإقليمية، الدينية، المذهبية، العشائرية، وما تفرزه من عصبيات استطرادية تنهش الإنسان من داخله وتحرمه نعمة السلام الروحي والإستقرار الفكري والتفرغ لما هو مُجد ونافع له، لأسرته، لمجتمعه، لشعبه، وربما للإنسانية أيضاً.
تسأل، تُكرّر السؤال، تتواتر الإجابات والفرضيات والنظريات، تتعدد الطروحات والإجتهادات غير أن صوتاً مكروراً مطرقياً رتيباً مُملاً حتى الوجع، يتناوب في كل قول يتهدج حولك: "الإستعمار، يا أخي إنه الإستعمار!" ويكون هنالك من يُضيف: "والصهيونية يا أخي، إنها الصهيونية"، وكالعادة فهناك دائماً من يذكّرك بثالوث دنس طالما استنبطوه بايحاء معاكس، مضاد من الثالوث المقدس، ويهدر الصوت بفخامة أبوية نبوية: "إنه الثالوث الدّنس، يا أخي. إنه الثالوث الدنس... الإستعمار الصهيونية والرجعية العربية..! هذا الثالوث هو مصدر التشويه في حياتنا القومية وهو أساس البلاء".
تقول مستسلماً، غير مستسلم O.K وماذا بعد؟ ماذا نحن فاعلون بهذا الثالوث ومضاعفاته وافرازاته واسقاطاته؟ لماذا نشكو التشويه والخراب في حياتنا القومية، نسبُّه، نشتمه، وفي الوقت نفسه فإننا نمارسه، نستمرئه... ونُكرسُه؟ من أية أعماق قاتمة شائهة نستمد كُلّ هذه الطاقة على أن نتحول الى الثنائية- الأحادية الشهيرة بالدكتور جيكل والمستر هايد؟ كيف أصبحنا هذه الكتلة الضخمة الشاسعة من دكتور جيكل ومستر هايد على إمتداد رقعة الوطن، وطننا، من المحيط الى الخليج؟
إذا كان السيّدان الاوروبيان، المستر سايكس البريطاني والمسيو بيكو الفرنسي قد رسما خطوطا مستقيمة هنا ومتعرّجة هناك على خارطة

وطننا،على وجوهنا، على قلوبنا وعلى عقولنا، واذا كانا قد قررا لنا استعمال تعبير "الشعوب" العربية بدل "الشعب" العربي، فلماذا نشكو ونمارس ونُكرس هذه التجزئة؟

وإذا كانت الصهيونية قد وضعت مخططها الاستراتيجي والتكتيكي للقضم في الجسد العربي فما هي استراتيجيتنا وما هو تكتيكنا القومي المبرمج لمواجهة هذا الخطر؟

واذا كانت "الرجعية" العربية معنية بتجزئتنا الى شعوب وقبائل لا لنتعارف بل لنتعارض، فكيف تُسوّغ "التقدمية" العربية لنفسها أن يحكم احد احزابها قطرين عربيين وعوضاً عن أن يوحدهما، حسب شعاراته هو،فإنه ينشق على نفسه بصورة أميبية، ويتشظى الى أحزاب وقبائل حزبية كلها ترفع الشعار نفسه وكلها تفعل ضد الشعار نفسه؟ وكل قطعة او شظيةمن هذا الحزب تتهم أشلاءه الأخرى وهي بدورها تعيد التهمة الى مُطلقها كالبوميرانغ تماماً.

تتذكر قصة الأعرابي الذي نزل عليه ضيفان من المدينة وحين قام أحدهما للعناية بحصانه فقد توجه الأعرابي الى ضيفه المدني الآخر مستفسراً: قل لي بحياة أبيك. من يكون صاحبك؟ فردّ عليه المدني: لا تعره اهتماماً، انه مجرد كلب من المدينة! وعاد الضيف الأول وخرج زميله لتفحص أحوال حصانه، فمال الأعرابي على ضيفه الثاني متسائلاً: قل لي بحياة أبيك... من يكون رفيقك؟ فرد عليه على الفور: لاتُعرهُ اهتماماً، إنه مجرد كلب من المدينة! صمت الأعرابي مبيتاً في نفسه أمراً. وحين حان موعد الطعام فقد قدم لضيفيه صفيحة كبيرة مليئة بالعظام.

دهش الضيفان واحتجا: ما هذا يا شيخ؟ ما هذا الطعام الذي تعرضه علينا؟ أهكذا تحترم ضيوفك؟

رد الأعرابي بهدوء: على رسلكما أيها الضيفان العزيزان.. سألت الأول عن صاحبه فقال إنه كلب، وسألت الثاني عن الأول فقال هو الآخر عن

زميله إنه كلب، واعتقد ان ما قدمته لكما هو خير طعام يمكن أن يقدم للكلاب!! ويسوءك ما يسوء من أن "جماهير" شعبك الحزبية ما زالت تقدم أشهى الطعام وأطيب الشراب وأسمى عبارات التبجيل لأولئك الذين يستكثرون على رفاقهم حتى صفات الكلاب، ففي الكلاب وفاء يستبعده بعض "القادة التقدميين" عن زملائهم ورفاقهم الذين شاطروهم الخندق الواحد وصاغوا معهم الشعار الواحد.

وتتساءل عما اذا لم يحن الوقت بعد، لإعادة النظر في مقولات "التقدمية" و "الرجعية" وشعاراتها التي تبدأ على الورق والحيطان واللافتات وتنتهي هناك على الورق والحيطان واللافتات، ويظل مصير الفكرة التي تؤمن بها، فكرة العربي الجديد المعاصر الحيّ الحرّ المبدع، حبراً على ورق او نقشاً على ماء...

وها أنت تغامر، تغامر حين تقول للعرب، عربك، إنّ تعبير "الشعوب العربية" هو تعبير خطير، قد يتعامل معه البعض ببساطة وربما بسذاجة، إلا أنه غير بسيط وغير ساذج على الإطلاق. وتغامر وتقول إنه في الحقيقة الملموسة، على الأرض، على أرض الواقع، في الجغرافيا لا يستطيع أحد العثور على "شعوب" عربية، وأقصى ما هو كائن، فإنه انتشار شعب واحد على بقاع شاسعة خلقت خصوصيات معينة في اللهجة والملبس والطعام وبعض الملامح الفولكلورية، إنما تظل هذه الفوارق من قبيل التعددية الواردة بالحسبان والضرورة أيضاً لدى شعب انفلش على مساحات شاسعة وتداخل بأقوام وثقافات أخرى أخذ منها وأعطاها دون أن يفقد وحدته الثقافية والتاريخية والوجدانية.

وتؤثر أن تبدأ بنفسك، فتلاحظ أن سُكان شمال فلسطين وجنوب لبنان أكثر تقارباً وتشابهاً من سكان شمال فلسطين وجنوبها، وتلاحظ أن سكان شرق سوريا لا يختلفون عن سكان غرب العراق بل هم أقرب اليهم منهم الى سكان دمشق أو حلب، وتلاحظ أنّ سكان سيناء أقرب

الى سُكان جنوب الاردن وغرب شبه الجزيرة العربية منهم الى سكان القاهرة، وسكان القاهرة أقرب الى سكان عمان وغزةوالقدس منهم الى إخوانهم في جنوب مصر، فلماذا يتبنى العرب خطوط سايكس بيكو من جهة ويندبون وحدتهم من الجهة الأخرى؟ ولا تتساءل من أجل المعرفة بل لتأكيد الإدراك بأن هناك من يستمريء الإقليمية (الإستعمارية الإمبريالية الرجعية الصهيونية) ويمارسها ويكرسها تحت شعارات قومية وحدوية تبقى في الكلام، تظل في اللغة وتموت هناك.

ولتكريس هذا الواقع فإن الدكتاتورية بكل معنى الكلمة تصبح ضرورة، فإذا استفادت فئة صغيرة من التجزئة الإقليمية فإن جماهير الشعب العريضة لا تستفيد منها، بل إنها تتضرر بها، وينشأ هنا التعارض الوجداني والمصلحي بين الجماهير وبين الزعيم. وتصبح الديمقراطية خطراً، وتبدأ اللعبة، فبقدر ما تتحفظ الجماهير الصامتة من الزعيم فإن صورته الشخصية تزداد انتشاراً وعدداً ومساحة. الزعيم يشك في ولاء الجماهير والجماهير قابلة للتخلي عنه في أقرب فرصة مواتية، ويحتدم الصراع وتنشأ في دوائر الزعيم الضيقة، حاجة لتبرير حكمه وبقائه واستمراره فيتم تشكيل ما يشبه لجنة الصياغة التي لا هم لها سوى اختراع الألقاب الكبيرة للزعيم الصغير. وبقدر ما تتضاءل مكانته الحقيقية في الشعب وفي التاريخ فانّ ألقابه تزداد فخامة ومهابة وتفقد المقاييس نسبيتها المعمول بها دولياً، ويصبح العسكري المهزوم المحدود في ثقافته العسكرية وطاقاته وإنجازاته ومواهبه، يصبح البطل، أركان الحرب، المشير، الفيلدمارشال، القائد الأعلى والأوحد والأكبر والأعظم، ويصبح خالد وعمر وأسامة وعقبة وصلاح الدين وسواهم مجرد ديكورات لسيادة الزعيم الفخيم العظيم، وتعزيزاً لهذه "الحقيقة" حقيقة "حب الجماهير" للزعيم، فلابد من ظهور الأغاني الخاصة بالزعيم

والأناشيد الخاصة بالزعيم، ولا بد من الإذاعات والتلفزيونات والصحف وأقواس النصر واللافتات والكتب والدراسات والمراكز الإعلامية والمصانع والشوارع والمزارع والزرائب والملاعب والمكتبات العامة ودور السينما (المغلقة مؤقتاً) والمسارح (الخالية مؤقتا) والجامعات وروضات الأطفال على إسم الزعيم ولإسم الزعيم وباسم الزعيم ولا زعيم إلا الزعيم، ولا إله الا الله!!

تشاهد في فسحة ضيقة بعد العشاء، فيلماً أمريكياً، غالباً ما تكون الجريمة لحمته وسداه. وكثيراً ما تكون هناك، في الفيلم كما في الواقع الامريكي، صبيةٌ جميلةٌ، طالبة في الكلية او سكرتيرة في مؤسسة مالية ضخمة، تختطفها العصابة، تغتصبها، تحقنها بالمخدرات لتسقط في شبكة الإدمان، تأمرها بالتجسُّس على مؤسستها أو بالعمل في البغاء أو في تسويق المخدرات، تشاهد الفيلم بلا مبالاة، لكنك إزاء هذا المشهد تعتريك رجفة لا ينتبه إليها أحدٌ سواك... رجفة رعب وقلق وخوف وحزن وسخط وغضب... رجفة المقارنة الفظيعة.. فها أنت يفعمك إحساس رهيب بأن حال أمتك العربية لا يختلف كثيراً عن حال هذه الشابة التعيسة التي أوقعتها شهوة المال والسلطة في مخالب عصابة لا ترحم.. أما العصابة التي تختطف أمتك كل يوم فإنها عصابة متعددة القوميات. وها هو على سبيل المثال "زعيم" كان بالأمس القريب مقاتلاً في سبيل الحرية، ها هو يغتصب أمتك في عداد المغتصبين، شبه زعيم لشبه دولة تغنيت بثورتها وساندت نضالها من أجل التحرر. هذه الدويلة الصغيرة الفقيرة البائسة تفرز جيشاً يحتل ارضاً عربية من جسد قطر عربي هو أقدم "دولة" عربية... ولا شيء سوى الكلام والأناشيد والشعارات والحقارة والضعة.

وهكذا، تضغط قلبك وتخزُ رئتيك اوجاعٌ لا تشبهها الأوجاع، وأنت ترى بأم عينيك وبأم أمك وبأم أبيك، كيف تكبر الكذبة وتتفشى الخديعة

وتصغر الأمة وينكمش الوطن ويحتفل الموت.

٤

الخلاصة - الخلاص!

هي تداعياتك الفكرية والوجدانية، تنثال وتتشظى بلا موعد وبلا انتظام، تداهمك وحيداً في سيارتك على الطريق الى العمل، في مناسبة عامة او على مائدة الطعام، تتداخل في إجراءاتك بموازاة الفوضى المنظمة، كما يقال، المتحكّمة بجدولك الزمني المراوح بين متطلبات الشغل اليومية والمفاجآت الصغيرة والكبيرة، والتي تقطع الطريق على أفكارك وخطط عملك، كأن يقتحم عليك مكتبك صديق لم يضرب موعداً مسبقاً، أو أن تقطع حواراً في شؤون العمل والحياة، مكالمة هاتفية قادمة عبر البحار، أو نبأ عن حادث بشع وقع على مقربة منك، في الحي او الشارع، أو على مقربة منك، في الجانب الآخر من الكرة الأرضية.
أنت لا تُعد بحثاً، ولا تريد أن تُعد بحثاً ولا يستهويك أن تعتمر قبعة الأكاديمي، على إجلالك لها.. هي انبثاقات قد تكون عابرة وقد تتكرر من حين لآخر، مع الأسئلة المتكررة فيك ومن حولك. وبالتراكم والتكرار تتبلور ملاحظات تجد رغبة، وربما حاجة، لأن تقولها وتكتبها بلا ترتيب، لأنها تطفو على السطح وتختفي وتتناوب، مثل فقاعات الماء الغالي في قدر تطبخك الحياة فيها، بحليب أمك. ماء يغلي، دم يغلي، وأفكارك تغلي وتصعد وتتلاشى مع فقاعات الكون المحيط بك المتوغل فيك، لكنها لا ترحل دون أن تترك على روحك وفي جسدك ندباتها وحروقها الموجعة، كبيرة كانت أم صغيرة، تُفكّر في أفكارك، وفجأة يقتحم خلوتك الذاتيةالخاصة حوار جديد قديم عن القرية والمدينة والبداوة والحضارة وتشارك في الحوار الجانبي بملاحظات صامتة لا تلبث أن تخرج عن

صمتها وتدخل مساحة القول. تقول إن تعريف المدينة والقرية عندنا لا ينطبق على موازيه في اوروبا أو أمريكا.
تقول إن المدينة عندنا لم تتحول بعد الى غابة إسمنت خانقة كتلك التي يعرفها الغرب، وتستغرب حين يستعير أدباء شعبك ولغتك صورة المدينة الغربية في أعمالهم بينما تلاحظ أنت أن مدينتنامهما كبرت تظل أشبه بمجموعة قرى متداخلة، رغم البنايات الشاهقة هنا وهناك ورغم الكثير من ملامح المدينة الغربية، تلاحظ أن معظم سكان المدن العربية هم أشخاص لم يتخلصوا بعد من سمات الريف، لم ينصهروا بعد في أتون المدينة الصناعية على النسق الغربي، ولذلك فإن تناقضاً واضحاً ينشأ بين عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقياتهم القادمة فيهم من الريف وبين أسلوب الحياة الذي تتطلبه المدينة.
كذلك الأمر بالنسبة للبداوة والحضارة، فإذا صح قول غوركي أو سواه، لا أتذكر، بأن في كُل روسي يقيم فلاح، فيصح أيضاً، أنه في كل عربي (حضري) يقيم بدوي، بنزعاته الأولى ومزاجه القديم ومفاهيمه الماضوية، وتستطيع أن تلاحظ بيُسر كيف أن "الحزب" الحديث الذي نشأ تبعاً لنشوء الطبقات والفئات في المجتمعات الصناعية، لم يتخلص في المجتمع العربي من نفوذ "القبيلة" المقيمة في أعماق كل عربي، علماً بأن التطورات الإقتصادية والسياسية التاريخية التي أوجدت "الحزب" الغربي بصورة منطقية لم تتكرر في الوطن العربي، ولهذا كان من الصعب استيراد صيغة الحزب بكل ما تعنيه في القاموس السياسي- الإجتماعي العصري.
ولعل البطء الشديد في التطورات الصناعية- السياسية- الإجتماعية في بيئتك العربية هو أحد الأسباب ولعله السبب الجوهري في بطء عملية الإنفتاح على الآخرين واستيعاب انجازاتهم وإعادة النظر في حصيلتك الخاصة.

في بيئتك، مثلاً، يتحدثون بتمجيد خارق غير قابل للنقاش والجدل عن الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام. وحين تلفت نظر أهلك وأصدقائك وناسك الى إمكانية البحث عن إيجابيات كثيرة في الفكر البوذي والكونفوشي في حضارات وثقافات وعقائد غير الثالوث الإلهي السماوي، فإنك تعرض نفسك لتهمة الكفر والزندقة والمروق، وهي تهمة كافية لإهدار دمك ولتعريض حياتك لخطر حقيقي، لا مزاح فيه!!

ولا يجديك بشيء أن تلفت الأنظار المحيطة بك مثل فكَّي كماشة الى أن عدد أتباع الديانات والعقائد غير السماوية يماثل أو يزيد على عدد أتباع الديانات السماوية وتلاحظ على الفور ان الملاحظات العلمية تصطدم بما تجوز تسميته " باللاهوت العلمي " مصحوباً بلاهوتيات لا تنتهي في الفكر والسياسة والإقتصاد وجميع مظاهر الحياة على هذا الكوكب. وتطلب من أهلك وناسك أن يخففوا شيئاً من غلوائهم وأن يتساءلوا عما يجري في الجزائر وفي إيرلندا الشمالية وفي أفغانستان وفي البوسنة والهرسك، وأن يحاولوا إعادة النظر في قناعاتهم المكشوفة للتناقض بين الحقيقة والوهم والأمنية والواقع، المنشود والموجود، تطلب إليهم الأخذ بالإدراك الذي هو أسمى مراتب العقل والذي يشمل القناعة والإيمان والتسليم لكنه يتجاوزها. تدعو الى الإدراك باعتباره السبيل لتحقيق الرؤية الشمولية وللإستشراف المسقبلي بصيغة قادرة على تكوين الإنسجام بين مُكونات الوجود مادة وروحاً، فكراً وتحولات، نبضاً وتطوراً، شكلاً وايقاعاً، تدعو الى الادراك ولا تزعم التخطّي الخارق، بل تُقدّم اجتهاداً خاصا ولدته تجربتك الخاصة الشخصية القائلة بأن البحث عن الأفضل والأكمل والأجمل هو محرك الحياة، هو روحها ومبدع ايقاعها، وبأنك مرهون لهذا "البحث" القائم على النظر وإعادة النظر بلا انقطاع وبمنهجية تنشأ من التنسيق بين ما هو ذاتي

وما هو موضوعي، ما هو خاص وما هو عام، ما هو قومي وما هو إنساني، ما هو وطني وما هو كوني، ولا تجد سنداً لك في هذا البحث أقوى من الحديث النبوي الشريف: "من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر" ومن هذه القاعدة تواصل بحثك المضني أحيانا والممتع حيناً، بحثك عن مرتكز جديد، أفق جديد، فضاء جديد، تسميه الإدراك.

صدى المونولوج

يريدني أصدقائي الإيطاليون أن أصوغ مونولوجاً ما، لماذا المونولوج؟ يبدو أنهم راغبون في التعارف. أو .كي. إنهم على حق. والطريقةالتي اختاروها لتحقيق مثل هذا التعارف، طريقة ذكية جداً. لعلّ المونولوج أفضل السبل للتعارف بين أبناء البشر. ذلك أن صيغة المونولوج تفرض حالة من التدفق الشعوري والكشف عن الهواجس، بعيداً عن البطاقة الرسمية الجافة والصارمة التي يقدمها المرء مرفقة بطلب الالتحاق بالعمل في مؤسسة ما.

في طلب العمل يقتصر الانسان على المعلومات البسيطة، الأولية، عن تاريخ ميلاده، دراسته، مؤهلاته، تجربته في العمل. وقد يرفق كل ذلك بتوصية من شخص هام أو مكان العمل السابق. لا، ليس هذا ما يريده أصدقائي الإيطاليون. ولا أفترض فيهم أن يهتموا بتاريخ ميلاد شخص إسمهُ سميح محمد القاسم آل حسين أو تاريخ وفاته، وما إذا كان متزوجاً بالسيدة نوال وله منها أربعة أبناء. يريدون بالتأكيد معرفة الشاعر سميح القاسم. أي شاعر هو؟ ماذا يفعل بقصيدته؟ وماذا تفعل به قصيدته؟ من أي همّ شخصيّ،قوميّ وإنساني نبتت شجرته؟ هل هي شجرة مثمرة؟ ما طعم ثمارها؟ ما لونها؟ أيُّ ظلّ تقترحه هذه الشجرة على عابري السبيل في هجيرة العالم والتاريخ؟ بعبارة أخرى فإن أصدقائي الإيطاليين يريدون مني اعترافاً. ليس بالمفهوم الكنسيّ بل بالمفهوم الإبداعيّ. وليُسمح لي بالتوقف هنا قليلاً لأستذكر أمراً شخصيا يعنيني كثيراً. قبل أيام وبينما أنا تحت عملية التعذيب في عيادة طبيب الأسنان في بلدتي الجبلية، الرامة، البلدة الجليلية الأشبه بجزيرة

صغيرة في بحر داكن الخضرة من أشجار الزيتون الرومانية العريقة، قُرع باب العيادة بإلحاح وحين فتح الطبيب، الدكتور جريس سمارة، ابن الطائفة العربية اللاتينية باب العيادة، دخل كاهن الطائفة معلناً بانكسار: " لقد توفي الأب ميشيل دي مارّيا وسيدفن غداً في القدس ".
ومع أنني أنتمي إلى عائلة عربية إسلامية فاطمية درزية فقد صعقني النبأ. الأب ميشيل دي ماريا كان من أوائل المعلمين الذين تربيت على أيديهم. وكان صديقاً للمرحوم والدي ولعائلتي كلها. وقد أكون أول تلميذ غير مسيحي يتعلم في دير اللاتين على أيدي الأب ميشيل والراهبات الإيطاليات والعربيات في بلدتي التي اشتهرت في الجليل وفي فلسطين كلها بالتعايش الطيب المتسامح والجميل بين أبنائها من جميع الطوائف العربية والأرمن أيضاً الذين وجدوا ملاذاً آمناً بين أهلي في أعقاب مذبحة شعبهم الرهيبة. كان الأب ميشيل نحيلاً متوسط الطول قمحيّ اللون بعينين سوداوين عميقتين يشعّ منهما بريق مقدس. واشتهر في بلادنا باسم "خوري الرامة" الذي يملك حواس فوق بشرية ويستطيع تشخيص الأمراض بمجرد النظر في صور الأشخاص، ويقال إن الشرطة نفسها استعانت به في الكشف عن جرائم قتل وسطو كثيرة. ولهذا السبب فقد زاره مئات الناس لمعالجة قلقهم وللبحث عن الطمأنينة والاستقرار الروحي تحت عينيه السوداوين اللامعتين العميقتين وبين كفيه اللتين تشبهان كفيّ السيد المسيح في أية صورة أو أيقونة. هل كان الأب ميشيل دي ماريا أول إيطالي أتعرف عليه؟ يبدو لي ذلك. إلا إذا كنت قد صادفت أشخاصاً إيطاليين دون أن ادرك أنهم إيطاليون. وفيما بعد فقد حدث لي أن تجولت كثيراً في العالم. وفي لقاءات كثيرة كان بعض الناس يسألونني: هل أنت إيطالي؟- لا. إذن أنت يوناني. لا. إسباني. لا. فرنسي. لا. أنت من حوض البحر الأبيض المتوسط. نعم.. إن لم تكن كل هؤلاء فأنت عربي. نعم، وحين

كانت تراودني رغبة في الاستطراد وإطالة الحديث، لا سيما إذا كانت محدثتي صبية جميلة فقد كنت أضيف على الفور.. نعم عربي وإيطالي ويوناني وتركي واسباني وفرنسي، أنا كل هؤلاء يا آنستي الجميلة. إختاري من تشائين منهم وستجدينني جاهزاً لعشاء جيد وسهرة ممتعة حتى الصباح.

لنعد الآن إلى موضوعنا، اصدقائي الإيطاليون يريدون مونولوجاً. وعليَ أن اكون صادقاً وصريحاً. ما من إنسان يستطيع أن يقدم مونولوجاً على الورق. ثمة مسافة في المكان وفاصل في الزمن بين نبضة القلب العفوية وتجسّدها على الورق. في هذه المسافة وفي هذا الفاصل، على ضيقهما، فرصة لتدخُّل الضوابط العقلانية. هنا يفقد المونولوج حدّته الأصيلة، بمثل ما ينقطع عنفوان الشلال بعد ارتطامه بمجرى النهر الأفقي، غير أن هدير الشلال يظلّ متواصلاً ويبقى له حضوره الايقاعي والنفسي والبصريّ، صدىً غير منقطع. أما كلمات المونولوج المسجّل على الورق فما هي إلا صدى المونولوج الباطني الجوفيّ الذي يهدر في أغوار الجسد والروح. وهذا هو في الحقيقة ما أقدمه لكم الآن. إنه صدى هواجسي وهمومي واشواقي التي لا يشبهها شيء أكثر من بركان إتنا الصقليّ الذي أفعمنا تجدد انفجاراته الرهيبة والجميلة حتى الوجع ونحن نكتفي بمشاهدتها عبر شاشات التلفزيون فقط.

وأذكر. أذكر الآن ما حدث لي قبل أكثر من نصف قرن، حتى لكأنه حدث صبيحة هذا اليوم. تخضلّ عيناي الطفلتان البريئتان بالدموع وأنا أتلقى بركة الأب ميشيل والراهبات يوم انتقالي من مدرسة دير اللاتين إلى المدرسة الابتدائية الحكومية. هناك كنت متفوقاً بين زملائي وتم اختياري على الفور لجوقة المدرسة التي كانت تستهل الدراسة بالإنشاد الوطني أمام طوابير التلاميذ المصطفة بنظام مثالي في ساحة المدرسة،

بينما يقف كل معلم في مقدمة صفه. وحين كان يزور المدرسة مسؤول من حكومة الانتداب البريطاني فقد كانت الإدارة تنتدبني لأنشد أمامه بلغة انجليزية متواضعة وغير واثقة بنفسها. إلا أنني كنت أحصد تصفيقاً استمر فيما بعد حين أصبحت "نجماً مسرحيا" يقوم بأدوار البطولة في المسرحيات المدرسية التي يخرجها المعلم "سليم" أو المعلم "ذيب" أو المعلم "يعقوب".

فجأة. وفي العام ١٩٤٨ حدث ما لم اتوقعه. لاحظت أن أبي الضابط المتقاعد برتبة كابتن من الجيش العربي البريطاني في الأردن مع نهاية الحرب العالمية الثانية، عاد لحمل بندقيته الانجليزية ومسدسه اللذين كان قد أهملهما بعض الوقت لصالح بندقية الصيد الالمانية من ماركة كروب- ساور. وأدركت أن والدي يقود مجموعة من المتطوعين لمقاومة القوات اليهودية الزاحفة على قريتنا والقرى المجاورة. وانخرط الرجال والشبان من أقاربي ومن أهل بلدتي في حرب لم يكفّ والدي عن التذمر من أنها حرب خاسرة لا محالة، بسبب الفوضى وعدم الاستعداد العربيين من جهة والتفوق العسكري اليهودي المدعوم من المملكة البريطانية من الجهة الأخرى.

وضربت الصاعقة طفولتي. هشمت أحلامها ومراياها وأناشيدها. ولم يمض طويل وقت حتى كان عليّ أن أطيع ادارة المدرسة التي انتدبتني لأنشد من جديد للمسؤول الحكومي القادم. غير أن المسؤول هذه المرة كان إسرائيلياً. وكان النشيد بلغة عبرية متواضعة وغير واثقة من نفسها. وفي أكثر من مقابلة مع وسائل الإعلام قلت ببساطة إنني ولدت شعرياً يوم ذبحت إنسانياً في عام النكبة، نكبة شعبي ووطني- ١٩٤٨. ولهذا السبب فأنا أرفض نعتي بأنني شاعر سياسي، لا. لست شاعراً سياسياً. أنا شاعر يرثي طفولته ويدافع عن طفولات البشر، جميع البشر، العرب، واليهود، الإيطاليين والانجليز، جميع البشر، بلا فرق

في القومية والجنس واللون والدين. أجل، سيّداتي، آنساتي، سادتي، أزعم أن قصيدتي أكبر من أبراج السياسة وأوسع من أسوارها وأعلى من قلاعها، أنا أكتب طفولتي المصعوقة في تحولاتها وتطورات مأساتها وتفاعلات تاريخها. أنا أكتب ذاتي. ولأنني لستُ إبيقورياً، فأنا واحد منكم، ومهما تكن لغتكم فإن وجعي قابل للفهم وحزني مهّيأ للوضوح وحلمي موغل في الشفافية ورسالتي لا تنحصر في رفوف الأكاديميا.
إنها رسالة بسيطة ومباشرة: لا عدل في ما أصاب طفولتي. لا أريد سوى مرآتي وشجرتي وشمسي وبيتي. لستُ "أطلس" الكرة الأرضية وما أنا بهرقل ولا أريد أن أكون سوپر مان هوليوود. كل ما أريده هو رثاء طفولتي والدفاع عن طفولات أمتي والعالم. هل كان ذلك "لوركا" الإسباني الذي قال: أنا أدافع عن ابتسامتي؟. نعلم أن الفاشست لم يطيقوا تلك الابتسامة فرموها بالرصاص على أبواب غرناطة الحزينة، غرناطة لوركا. غرناطتي. لا فرق. أما أنا أيها الأصدقاء الأعزاء. أنا سميح القاسم العربي فلا أدافع إلا عن دمعتي..
لماذا إذن تتألب علي هيئة الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي ومجلس الأمن وكل جهات الأرض لمنعي من الدفاع عن دمعتي؟
لم يسمحوا لطفولتي بأن تبتسم بحرية فلماذا لا يسمحون لشيخوختي بأن تحزن بحرية؟! لماذا يثرثرون عن حقوق الإنسان على منابرهم الأنيقة العالية بينما هم يدوسون الانسان نفسه بأحذيتهم العسكرية الفظة العالية؟

أنذا أسأل. متشبثاً بحق السؤال، غير متفائل بنعمة الجواب، لأنهم هم أيضاً يتشبثون بحق الصمت، حتى لا تُستعمل أقوالهم ضدهم في محكمة التاريخ.
أحاول كل صباح، مثل أي مواطن في هذا العالم أن أرتشف قهوتي على شرفة منزلي الجبلي. ثمة امتداد مدهش لخضرة حقول الزيتون العميقة

المتمطية باسترخاء صباحيَ دافئ، حتى تلامس أجسادها المكتنزة بالشهوة أشجار السفح البريّة.. وفي كل صباح يكسر هذا المشهد الريفيَ الجميل الحالم، نتوءٌ قادمٌ من تاريخ آخر وجغرافيا أخرى.. إنها تلك المستوطنة الإسرائيلية المبنية حديثاً، بلا مبرر في الطبيعة أو في الهندسة المعمارية أو في القوانين والشرائع الدولية. تلك المستوطنة تقف بيني وبين بخار قهوتي، وتنغرز كالخنجر في خاصرة روحي وذاكرتي.. تلك المستوطنة الغريبة اختاروا بناءَها على أرض أبي وجدي المصادرة، حتى لكأنهم لم يأتوا من أطراف الدنيا إلا ليحرموني من العلاقة الانسانية العادية والمتعارف عليها بين البشر، العلاقة بين الانسان وقهوة صباحه..

وللحقيقة فأنا لا أعرف هؤلاء الأغراب المتطفلين على مشهدي وقهوتي. ثم إنني لا أريد أن أعرفهم لأنني لا أريد أن أكرههم ولا أستطيع أن أحبهم. ولشدّ ما أخشى أن يتسلل إلى نفسي فيروس العنصرية لو أنا دخلت معهم في مواجهة مباشرة حول أسباب اقتحامهم حياتي وعزلتي وشرفتي ومشهدي. أُدرك أن لي من ثقافتي الشخصية وحضارتي القومية قدراً كبيراً من المناعة ضد فيروسات الحقد والكراهية والتعصب والعنصرية. غير أنني مدركٌ أيضاً أنني إنسان لا ملاك ومن حقي وواجبي أن أجنّب نفسي قدر المستطاع إمكانيات الوقوع في الخطأ والخطيئة..

يقول مثلنا الشعبي "الباب الذي تأتيك منه الريح، سدّه لتستريح".. وأنا أريد أن أسدّ هذا الباب الذي تأتيني منه الريح غير أنني محكوم بمعادلة يشكل الآخر النقيض طرفها الثاني. وإنني لأنتظر أن يفعل الطرف الثاني، الطرف الإسرائيلي شيئاً حتى نتمكن معاً من أن نسدّ الباب الذي تأتي منه ريح الكراهية والعنصرية، وسأكون دائماً على استعداد لتقديم التضحيات والتنازلات شريطة أن يتمكن شعبي من

استرداد حقه الأولي في تقرير المصير وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس، إيليا كابيتولينا، أور سالم، مدينتنا التي وضع حجر الأساس الأول فيها جدّنا العربي سالم اليبوسيّ قبل خمسة آلاف عام.

أنا لا أكره أحداً ولا أريد أن أكره أحداً، لكنني لا استطيع الاستمرار في أداء الدور المرهق، دور هملت العربي الممزّق شرَّ ممزَّق بين أبيه القتيل وأمه المغلوبة على امرها وعمّه المهيمن على العرش وأوفيليا التعيسة الغائمة بلا انقطاع.

كل صباح تبرد قهوتي وتنطفيء سيجارتي بينما أنا أحدّق في جمجمتي التي أحملها بين يدي مكرراً على حدود الجنون: أن أكون أو لا أكون.. تلك هي المسألة!

لطالما عاركتُ الخذلان وعايشت الموت. وإنني لأندهش من نفسي لقدرتها على احتمال كلمات الرثاء وقصائد الوداع التي رافقت أهلي، أحبائي، أصدقائي الراحلين على سفينة الموت عبر بحر الظلمات، طامحين إلى فجر جديد وراء حدود الغيب. وإنني لأُكابر وأُناور. أحاول قدر جهدي الالتفاف على موضوعية الشيخوخة وتبعات الجسد، ومع يقيني بحتمية تعب المعادن وفصول الزمن ودورات الحياة والموت فإنه يظل من الأسهل عليّ أن أتحدث عن الشيخوخة في المطلق، من أن أتحدث عن الشيخوخة منسوبةً لي، عن شيخوختي.

هل قلتُ شيخوختي؟ أجل قلتها. بُحت بهذه اللفظة الشريرة القاسية، حتى قبل استكمال الحديث عن فتوتي وشبابي، قبل استذكار دراستي الثانوية في كلية تيراسانطة الناصرة حيث التقيت طلاباً ومعلمين من قوميات شتى، كانت معايشتي لهم واختلاطي بهم مدخلاً جيداً إلى نزعة ثقافية وانسانية كونية أممية تتيح للاعتزاز بالانتماء القومي أن يكون منفتحاً على الأمم والحضارات الأخرى دون تعصب أعمى وانغلاق انتحاري.

هل قلتُ " شيخوختي "؟ أجل قلتها، ففي الحادي عشر من أيار ١٩٩٩ يكون عليّ أن " أحتفل " بعيد ميلادي الستين. وصراحة، فأنا لا أصدّق هذه الحقيقة، أو أنني أميل إلى عدم تصديقها. لأنها حقيقة قاسية أيها الأصدقاء، فما الضرر في سن الأربعين؟ ماذا لو أتيح لي أن أقضي بضعة أعوام من العمر وأنا في الأربعين فقط؟ هل يضرّ ذلك بأحد؟ أنا لا أطلب الثلاثين أو العشرين. أتحدث عن الأربعين فقط. في الأربعين يصبح المرء أكثر قدرة على التمتع بالشعر والموسيقى والجنس والطبيعة والطعام والرحلات. لو طلبت سن العشرين لحق لكم اتهامي بالطمع والأنانية، لكنني أطلب الأربعين حيث أتيح لي أن أكون أكثر اقتراباً من الشنفرى ودانتي أليجييري والمتنبي وشكسبير وبايرون والمعري ولوركا وأراغون وريتسوس ونيرودا ومايا كوفسكي. وفي الأربعين تصبح هواجس بتهوفن وأحزان ألبينوني وكوابيس بيكاسو ودالي أكثر وضوحاً، ويغدو تأمل سمكة في مياه البحر الضحلة وسيلة أيسر للاقتراب من الله.

وأعترف، ليكن اعترافاً كنسياً. ليكن اعترافاً شعرياً. على هذه القصيدة أبني كنيستي، أبني كنيستي الشعرية وأرحل. أدرك أنني أرى عبر نظارتي الطبية بوابة الرحيل القريب عن هذه الأرض البعيدة.. الرحيل عن أكثر من أربعين كتاباً في الشعر والنثر. عن تجارب الحب والاعتقال والسجن والسفر، عن زوجتي الغالية، وأبنائي الأحباء وأصدقائي الأعزاء، عن ملايين الناس الذين قرأوا قصيدتي أو سمعوها مني أو من شفاه المغنين،عن اقاربي وجبالي وأشجار زيتوني، عن منزلي وحديقتي المهملة وكلبي الجميل " رينغو "، عن الصحيفة الأسبوعية التي أحررها لأحرر نفسي من الحاجة المادية الصعبة، وعن الفصلية الثقافية، مقبرة الفيلة التي آوي اليها في ختام الصراع..

لقد أحببتُ الحياة دون أن أخافها. وها أنذا لا أحب الموت لكنني لا أخافه.

عشت لا كما كنت أتمنى أن أعيش، لكنني عشتُ كما ينبغي للمرء أن يعيش. لم أهدر الوقت عبثاً. وحتى لو أردتُ فما كان بمقدوري أن استخف بالوقت. لستُ نادماً على شيء. لم أفعل ما يغضب الله، رغم يقيني بأنني أغضبت كثيرين من البشر، والذين أغضبتهم هم إما السذَّج أو الأشرار. واسمحوا لي بأن أعلن اعتقادي بأن الله أحبني بمثل ما أحببته. لقد أدخلني في التجربة ولم ينجِّ جسدي من الشرّير، لكنه أنقذ روحي وعقلي من لوثات الحقد والجنون ووهبني من الحب ما جعل الكون في نظري أجمل والحياة أرقى والناس أكثر طيبةً مما هم في الحقيقة، ولا بأس. لا بأس في هذه الندبات والغضون، لا بأس في هذه القسمة من الحياة الدنيا، رغم أن التخبط في شباك الستين يعني أن يُصبح التردد على أسرّة الأطباء الصارمين أمراً متاحاً أكثر من التردد على أسرة النساء الجميلات..ولا بأس، حسبي الوعد بالجنة إن شاء الله. وهناك في جنة الله الجميلة كوطني بلا شك، ستتسنّى لي ملاعبُ بلا حدود وأسرَّة بلا عدّ. ولن يبخل عليّ الله سبحانه وتعالى بمكتب فخم وكرسيّ مريح وقلم حبر سائل وورقة بيضاء. وسيكون عليّ آنذاك أن أهتم وحدي بكتابة قصيدتي القادمة.

وفي هذه الأثناء أدرك أنني تجاوزت مرحلة الحجز وتفتيش الحقائب والتحقق من التذكرة وجواز السفر. موظفة المطار تنقل عينيها الجميلتين بين وجهي وصورتي على الباسبورت. لا ريب في أنني أبدو في الصورة أصغر سنا بعض الشيء. ولا بأس. العالم نفسه يبدو الآن اصغر سناً من عمره الحقيقي. بعد لحظات يحملني ملاكي الى فضاء الموت السري الساحر.

وبعد أشهر يتململ أطلس العملاق لينقل الكرة الأرضيّة الى الألفيّة الثالثة وفق التقويم المبتديء بميلاد مواطني، ابن بلادي، السيّد يسوع المسيح عليه السلام، لطالما فتنت بهذا الجناس الجميل بين اسمي واسم المسيح

عليه السلام. مسيح – سميح.. كما فتن بعض النقاد العرب بهذا الجناس وسمحوا لأنفسهم بالافتتان بجناس آخر بين "الرام" قرب القدس و"الرامة" بلدتي الجليليّة.

وسواء استمرّت إقامتي على هذه الأرض لزمن ما من الألفية القادمة أو لم تستمرّ، فأنا موقن بأنني سأكون هنا بشكل من الأشكال، بصيغة من الصيَغ، بحلول دائم في قصيدة باقية أو بتقمّص جسد جديد.

سأكون هنا، ومع كثيرين مثلي من أبناء البشر سأكررّ السؤال اللجوج:

– ماذا فعلنا بهذه الأرض في الأعوام الألفين الماضية؟ وماذا سنفعل بها في تقاويم الألف عام القادمة؟

ثمّة سبعة مليارات من الآدميين تنغل على سطح هذا الكوكب، تزاحم حيوانات البريّة والطيور وسكان البحار على قسط من الكالوريات يقيم الأود ويحرس غريزة البقاء. وفي الوقت نفسه يتعمق الإحساس المرعب بالازدحام. وبينما نحن تمارس صراعنا الجنوني من أجل البقاء والاستمراريّة فإنّنا نعرّض للخطر مقوّمات بقائنا وأسباب استمراريتنا. نحن نقطع فرع الشجرة الذي نجلس عليه ،نحتطب أشجار غابات المطر لنبني لنا كوخا.. لنشعل المدفئة.. لنصنع ورقة بيضاء نكتب عليها قصيدتنا ومونولوجنا... وحين نحسّ بالعطش فلا نستطيع إلاّ أن نتذكّر ما صنعته أيدينا بقطرة المطر المعدمة في ساحاتنا العامة وعلى رؤوس الأشهاد.

نحن ننجب الأبناء ونودعهم بمارشاتنا العسكرية الحماسيّة الى ميادين القتال، من أجل قطرة المطر التي أعدمناها نحن بأيدينا. وحين نقيم الإحتفالات البهيجة احتفاء بمداخن مصانعنا الجديدة فاننا نغيب في نشوة الازدهار، عن حقيقة كون مداخننا هذه رماحا نثقب بها خيمة الرحمة التي نصبها فوقنا خالق الكون، الخيمة التي يسميها العلماء بطبقة الاوزون.

بأظلافنا نحفر قبورنا، مدركين أنّ تخريبنا المنهجي المهووس للطبيعة، بيتنا الكبير والوحيد، سيؤدّي قطعا الى ارتفاع درجة حرارة الأرض وإلى ذوبان جبال الجليد القطبية وارتفاع منسوب البحار والمحيطات وإغراق مساحات شاسعة من يابستنا الضيّقة أصلاً.

وحين نعلن بفرح عارم تشييد محطّاتنا النوويّة للأغراض السلميّة، فانّنا نكذب على أنفسنا وعلى العالم، محاولين التستّر على مصانع السلاح الذريّ السريّة التي تبنيها حكومات طاغية لا تجد شعوبها خبزها كفاف يومها.

وحين يحتفل مندوبونا في هيئة الأمم المتحدة واليونسكو واليونيسيف وغيرها من المحافل الدوليّة بالتّوقيع على مواثيق حقوق الإنسان وحماية الطفولة والأمومة وتأمين الغذاء لمئات الملايين من المصابين بأمراض فقر الدم، فانّنا نحسّ على جلودنا حرائق النابالم ونشاهد بعيوننا المفتوحة على سعتها انهيار عماراتنا بالقنابل الفراغيّة وتمزّق أشلاء الملايين بالقنابل العنقودية والصواريخ عابرة القارات والألغام الأرضيّة الغادرة.

لست من أنبياء الدّمار ودعاة الإبوكاليبس، ولا أنا من أصدقاء فرانسيس فوكوياما، إنّما صفة العناد والتفاؤل وجموح الحلم المنسوبة لمواليد برج الثور أمثالي، لا تكفي لتجاهل تحصيل الحاصل، ولا ينبغي لها أن تحجب الرؤية الصحيحة والرؤيا بعيدة المدى.

نحن نواجه خطرا حقيقياً أيّها السادة. خطر التلوّث البيئيّ والمخزون النوويّ القادر على تدمير كوكبنا، هذا الصغير، خمس مرّات.. ونحن في خطر أيها الإخوة والأخوات، خطر الموت الروحي والفكري الذي يفرز نظريّات العنصرية والتفوّق القومي ويدفع بنا كالقطعان الهائجة الى ممارسات الإبادة العرقيّة والذّبح الدّيني، لقد بدا لنا وهما، أنّ البشريّة تعلمت الدروس الكافية من حربين عالميتين طاحنتين، وها نحن على أبواب الألف القادمة نبصر خيول اللهيب والموت متشكلة من جديد في

جموحها المرعب على أكثر من أفق بائس في أرضنا البائسة.
ونرفع أبصارنا وإنجازاتنا التكنولوجيّة العظيمة نحو الفضاء الكوني.
حسنا، لنفعل ذلك. لنجترح معجزة اقتحام المجرّات السماوية، على أن يكون ذلك الاقتحام لصالح كرتنا الأرضيّة وليس على حسابها.
لقد تأخرنا في الإنتباه الى ما تصنعه أنفسنا بأنفسنا. غير أنّ ساعة الرّمل لم تقل كلّ وقتها، وما زال في مقدورنا أن نوقف عقارب ساعة التفجير الكبير. ونحن مطالبون بالتحرك الفوري والحثيث لتجاوز احلافنا العسكرية الحمقاء، الى حلف إنساني كوني جماعي يمنحنا قوة الانتصار على نزعة التدمير الذاتي، ويرقى بتاريخنا البشريّ الى مستوى الخلاص الحقيقيّ، مدركين أن خلاص الإنسان من خلاص الشجرة، ومصير النهر من مصير المنشأة الصناعية، ونظافة المستشفى من نظافة الأرصفة، ونضوج رغيف الخبز من نضوج الزهرة البرية، لا، لا تناقض في ذلك، وليست المهمة مستحيلة، وكلّ ما علينا التزامه هو تكريس حواسنا الطبيعيّة لغاياتها الأصلية:
أن نرى بأعيننا، أن نسمع بآذاننا، أن نشمّ بأنوفنا، أن نلمس بأصابعنا، أن نتذوق بألسنتنا، أن نحدس بعقولنا، أن نشعر بضمائرنا وأن نحبّ بقلوبنا.
أما الآن فاننا نرى بمناظيرنا العسكرية نشمّ بكماماتنا المضادة للغازات السامة، ونلمس بكاشفات الألغام ونحبّ بأرصدتنا البنكيّة ونسمع بأجهزة التنصت الجاسوسية، ونحدس بما يمكن أن نقتنصه من خبز الآخرين بينما نبحث عن أسواق جديدة لتوزيع خبزنا الطازج الخارج لتوه من فرننا الذريّ!!
ثمّة من يقول: لا مناص بعد اليوم، انتهى كلّ شيء، ونحن آيلون الى السقوط والهلاك. وهناك من يطرح معادلة الخيار بين اليأس والتفاؤل.
واسمحوا لي أيها الأصدقاء، أيها الإخوة والأخوات، إسمحوا لي بأن

أثوب الى جنوني العاقل، الى شغفي المفعم العارم بالحياة، الى معادلتي الوحيدة والعنيدة:

إما التفاؤل أو التفاؤل.. إما الحياة أو الحياة!

وكلَ ميلينيوم وأنتم بألف خير، على أن تذكروا دائما، أنّ الله يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، في الميلينيوم الثالث والرابع.

(كتب هذا النص استجابة لدعوة تكريمية من ايطاليا)

ميثاق القدس

*فوق دويّ المدافع وأزيز الرصاص وهدير الطائرات، يتهادى من أغوار الزمن وعبر ركام التاريخ، صوته العربيّ القديم، صوت الملك صادق اليبوسيّ:

أيها العرب الفلسطينيون، أيها العرب، أيها الناس يا أبناء شعوب الأرض قاطبة.. هوذا صوتي، صوت الملك صادق، ملك مدينة أور- سالم، ملك اليبوسيين الكنعانيين العرب، يأتيكم صوتي..

باسم إيل بعل أروي لكم ما كان

وباسم أور سالم أنذركم وأبشركم بما سيكون

وباسم الله أريكم ما هو جدير بالكينونة..

*

أيها الأحفاد الأعزاء!

نحن الآن في العام ألف وأربعمئة قبل ميلاد طفل يكون اسمه يسوع ويكون له شأن خطير.

وإنني عائد لتوّي من المعركة الدامية بين جيشنا اليبوسيّ الكنعاني العربي وجيش يقوده رجل اسمه يشوع بن نون. ونما إلينا من بعض أفراد الحاشية أن هذا الرجل ينتمي إلى قبيلة تسمى بالعبرانيين وأنه وريث زعيم القبيلة ونبيها الكريم موسى القادم بها من بلاد الفراعنة، والمتوفى في صحراء سيناء دون أن تطأ قدماه هذه الأرض أرضنا.

لقد قُيّض لنا النصر المؤزَّر بجبروت إيل بعل، غير أن يشوع بن نون أقسم بآلهته، كما قيل لنا، بأن يحرق مدينتنا المقدّسة أور سالم التي شيّدها مؤسس مملكتنا سالم اليبوسي الكنعاني العربي قبل الف

وثمانمئة عام، فحملت اسمه أور- سالم أي مدينة سالم.. وشيّد على الجبل القريب هيكلاً ما زلنا نمارس فيه طقوس التعبد لآلهتنا.
لقد تصدّى جيشنا المغوار لقوات الغزاة الأجانب وصدّها ببسالة ليست غريبةً على قومنا وتاريخنا وجيوشنا...
هذا ما هو كائن. غير أنني أيها الأحفاد الأعزاء قلق مما سيكون.. قلقٌ مما سيكون.. قلق مما سيكون..

*

وفوق دويّ المدافع وأزيز الرصاص وهدير الطائرات، يتهادى من أغوار الزمن وعبر ركام التاريخ، صوته العربي القديم صوت آخر الملوك العرب اليبوسيين، أدوني بازق:
أيها الأحفاد العرب أيها الناس من جميع الأمم
أنذا المتكلم فيكم أدوني بازق آخر ملوك اليبوسيين، يأتيكم صوتي من حنجرتي المذبوحة، من دمي المتخثر على أوراق البردي المثقلة بمآسي التاريخ.
لقد احتلَ مدينة مُلكي أور سالم رجل من العبرانيين واسمه داوود وبعد تدمير المدينة بلغت حرابه حنجرتي ورقاب الجنود والمدنيين العزّل في حاضرة مُلكنا.
حدث هذا في مطلع القرن العاشر قبل ميلاد طفل شماليٍّ سيكون اسمه عيسى بن مريم وسيكون له شأن جليل في كل ألاصقاع...
في العام الرابع والألف قبل ميلاد الطفل الموعود في صحائف الغيب نُصب داوود ملكاً على مدينتنا أور سالم والتي تسمى أور شالم بالآرامية، أما الآن وبعد سبعة أعوام من مُلك داوود فقد استبدلوا اسم مدينتنا الأصل بالاسم الطارئ " مدينة داوود " . واحتل داوود حصن الجبل والمعبد الذي مجّدنا فيه آلهتنا وأسماه جبل صهيون.
وسيكون أن يأتي أحبار داوود الذين يضعون كتاباً عظيماً اسمه التوراه

ليقولوا إن أور سالم هي أور شالم وهي أورشليم وهي يروشلايم وسيقولون إن المقطع الأول من إسم مدينتنا ليس "أور" أي مدينة، بل هو "يروشا" أي الميراث وسيزعمون أن اسم المدينة هو "ميراث السلام" وهو تحريف صارخ لحقيقة المادّة ومعنى الروح وجوهر التاريخ..

ذلك أن هذه المدينة مدينة حروب وويلات لا مدينة سلام.. وسيكون زمن قادم تصبح فيه مدينة السلام ولو إلى حين، إلى أن يأتي زمن قادم آخر تكون فيه مدينة سلام أبديّ بين جميع البشر.. ولعل ذلك يتأتّى للأمم في الألف الثالث بعد ميلاد طفل السلام الموعود عيسى بن مريم. آنذاك يقول البشر: يا لها من مدينة عظيمة تعددت أسماؤها، أور سالم، أورشالم،أورشليم، يروشلايم، إيليا كابيتولينا، إيلياء، بيت المقدس، دار السلام، مدينة داوود، جيروزاليم، مدينة السلام، القدس. تعددت اسماؤها في الحرب والصراع واتحدت في طموح لا يقهر إلى السلام والطمأنينة.

مباركة هذه المدينة، مباركة في لعناتها، مباركة في بركاتها.

*

وفوق دويّ المدافع وأزيز الرصاص وهدير الطائرات، يتهادى من أغوار الزمن وعبر ركام التاريخ، صوت شاهد الحق، صوت البطريرك صفرونيوس:

مرّ بها الفاتحون أكثر مما حَطّ في رحابها الحجّاج، وبمشيئة الله فإن اسماً جديداً يسطع بين كواكبها اليوم. إنه خليفة العرب والمسلمين الرجل الهائل في إقدامه العظيمُ في حكمته ونبله المهيب في حضوره واسمه. إنه عمر بن الخطاب. وها أنذا البطريرك صفرونيوس، بطريرك جيروزاليم أقدم مفتاح المدينةإلى هذا الرجل العظيم آمناً على عقيدتي مطمئناً على رعيتي وقد حظينا بالعهدة العمرية المجيدة المفعمة بروح

المحبة والأخوة والصدق والسلام.
مرّ بهذه المدينة نبوخذ نصّر البابلي الكلداني، مرّ بها كورش الفارسي ومرّ بها الإسكندر المقدونيّ ومرّ بها تيطوس الرومانيّ ليمرّ على خطاهم الويل والهلاك والدمار. وها هوذا العربي المسلم يرفع رايات نوره العاقل شاهقاً في سماء هذه المدينة لتعود إليها قدرة العبادة والتأمل والتسبيح بمجد الله في العُلا.
نحن في العام الثامن والثلاثين بعد الستمئة من ميلاد سيدنا يسوع المسيح عليه السلام. وإن أصحاب المدينة الأوائل يعودون إليها باسمها الجديد "القدس"، لتكون قدساً طاهراً ناسكاً لكل المؤمنين بالله تعالى على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم ومشاربهم.
وإنني لأرى ما سيكون. أنا بطريرك القدس صفرونيوس أرى رجالاً من الغرب يأتون بشارات الصليب ليسمّوا أنفسهم بالصليبيين وليجتاحوا هذه المدينة. غير أن أبناء ديني من النصارى العرب سيهبون لنجدة إخوتهم العرب وسيتصدّون معاً للغزو الأجنبي المتستر باسم الصليب وبشارته. سيكون ذلك في العام التاسع والتسعين بعد الألف الميلادية المباركة. غير أن قائداً هماماً يتقدم العرب والمسلمين باسمه المشرق صلاح الدين الأيوبي وسيهزم الغزاة في العام السابع والثمانين بعد الألف والمئة الميلادية المجيدة...
في الخامس عشر من تموز ألف وتسعة وتسعين سيجتاح المدينة أربعون ألفاً من الصليبيين. سيذبحون جميع أهلها، رجالها ونساءها، شيوخها وأطفالها، وسيكون عدد ضحاياهم سبعين ألفاً..
وحين يستردها من أيديهم الدامية قائد العرب والمسلمين صلاح الدين فسيلقن العالم درساً في النبل والشهامة. سيحسن إلى المهزومين وسيعطف على الأسرى وسيتصدق على الأرامل والأيتام.
ولا يستوعب الجميع ما في هذا الدرس من موعظة وعبرة. ذلك أن المدعوّ

ريكاردوس ملك الانجليز سيذبح ألفين وسبعمئة أسير عربي في عكا في العام الواحد والتسعين بعد الألف والمئة أي بعد واقعة صلاح الدين الانسانية الكبرى بأربعة أعوام فقط.
وسيأتي بعد الملك الانجليزي ملك فرنسي يدعى نابليون بونابرت وسيسير على ميراث الغدر والخيانة، وسيذبح أربعة آلاف جندي عربي في يافا بعد أن يتفقوا معه على إيقاف الحرب وإلقاء السلاح وسيكون ذلك في آذار من العام ألف وسبعمئة وتسعين.
وسيخلفه في ختام الحرب الكونية الأولى قائد انجليزي آخر يدعى أللنبي، وسيقف هذا الوبش الوضيع أمام ضريح صلاح الدين في دمشق الفيحاء قائلا للتراب: "ها قد عدنا يا صلاح الدين!".. ولعله يحسّ في قرارة نفسه بالهلع من سيف يشقّ التراب ويقطع لسانه القذر الحقير.
يقول العرب المسلمون: بيت المقدس لا يدخله الدجّال!
وأضيف أنا صفرونيوس بطريرك القدس أن الدجّال يدخل مدينة القدس ولا يدخلها.. يدخلها على صورة غازٍ ظامئ للدم، وسرعان ما تمّحي الصورة ويغيب الأصل.
ويقول العرب المسلمون: إن جميع البشر يشربون من الأنهار والينابيع والغيوم الصاعدة إلى الكون من تحت الصخرة المشرّفة.. وأضيف أنا صفرونيوس بطريرك القدس: ويلٌ للذين يبصقون في نهر شربوا منه! ولتكن مباركة مدينة القدس حرةً مقدسةً إلى دهر الداهرين.

*

وفوق دويّ المدافع وأزيز الرصاص وهدير الطائرات.. عبر ركام التاريخ وأكداس القرارات الدولية في إضبارات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ينهض صوته المسوّر بالمذابح والأسلاك الشائكة والمدجج بآلام النكبة الباهظة من العام ١٩٤٨، وأحلام الثورة المباركة في العام ١٩٦٥ وأحزان النكسة الفادحة من العام ١٩٦٧، ينهض صوته بصرخة الفدائي

الفلسطيني وحجر جنرالات الإنتفاضة الأطفال، مؤزّرا بفرح الشهداء المبتور عن أعياد الاستقلال، معطّراً بزغاريد النساء الجامحات أفراساً عربيات في وجه الغزاة المحتلين، مزنراً بإرادات العمال والفلاحين والطلاب والجنود والشعراء وسائقي الحافلات والأدباء والرسامين والأطباء والمهندسين والمؤرخين والحالمين.. ينهض صوته، صوت أول الرؤساء العرب الفلسطينيين ياسر عرفات:

بسم الله الرحمن الرحيم

" سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَهُ من آياتنا، إنه هو السميع البصير.. ". صدق الله العظيم..

أيها الفلسطينيون والفلسطينيات.. أيها العرب.. أيها الناس يا جميع الأمم..

بعد نيِّف وقرن من مواجهات فرضت علينا، ورغم نصف قرن من النكبة والرحيلّ والثّورة والشهادة والانتفاضة،نقول طوبى لدمنا الحي الساخن الذي غطى خطوط العرض والطول على سطح الكرة الأرضية، ونقول طوبى لملايين الأمهات والآباء والأبناء والبنات، من الأجداد إلى الأحفاد، الذين حرموا الأمومة والأبوة والطفولة لا لذنب اقترفوه سوى عادتهم الإنسانية المألوفة في أن يحبوا بيتهم وشجرتهم، ووردتهم وسنبلتهم، شمسهم وليلهم، لغتهم وقمرهم، عشبهم وزيتونهم، خيلهم وأغنامهم، مناخهم وأحلامهم.. ونقول طوبى للحزانى، للمعذبين في الأرض، للثوار على الطاغوت والقهر، للعائدين على أجنحة الرياح وعلى أكف الجبال إلى أحضان السهول والوديان، ليبنوا بيتا في الجغرافيا على أنقاض بيوتهم المهدّمة في التاريخ، ليرمموا سياجاً وليغرسوا كرمة وزيتونة، ليصافحوا صبّارة باقية وليجددوا شباب تينة لم تفقد الذاكرة.. وثمة أحواضُ حبقٍ ووردٍ ونعناع ينبغي عليهم أن يبعثوها،

ومصانع ومدارس وجوامع وكنائس وشوارع ومزارع شأنهم ومشيئتهم أن ينشئوها..

قال السيد المسيح: على هذه الصخرة أبني كنيستي.. ويقول شعبنا: على هذا الحجر أبني دولتي..

أجل أيها الفلسطينيون، أيها العرب، أيها الناس، يا جميع الأمم.. سنبني دولتنا العربية المستقلة من جديد، وستكون القدس عاصمتنا، وستكون حاضنتنا وحاضرتنا، وستكون مفخرة للأمم عندنا ولنا عند الأمم، ومبخرة عامرة بالطيب والمسك والعنبر والبخور، نستقبل بها جميع البشر من جميع الأديان والطوائف والأجناس والألوان والمشارب والمذاهب، ليدخلوها آمنين، وليمجّدوا الرب قائلين: المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة، وليباركوا مجد البراق إسراءً ومعراجاً، وليجددوا العهدة العمرية الشريفة في القدس الشريف في مدينة السلام مدينة الهدى والمحبة بين جميع البشر.

وليكن هذا ميثاق القدس، ميثاق السلام والعمران، ميثاق الخير والحضارة.

وليكن هذا "ميثاق القدس" إلى دهر الداهرين ويوم الحشر والدينونة بما شاء الله سبحانه وتعالى، إنه السميع المجيب البصير العليم.

أخي عبد الرحيم محمود

قلتَ أجملَ ما يُستطاع، وفعلتَ أنبلَ ما نستطيع. قلتَ وفعلتَ يا عبد الرحيم محمود، يا أخاً ولدته أمُّنا الأرض وأرضعته أمنا الثورة،واحتضنته إلى الأبد أمُّنا الشهادة.

بشفتيك نطقت الوطن وعلى راحتيك حملت روحك، لتحملنا من بعد،وطناً وشعباً،إلى سدرة الجنون العاقل الحكيم،والشغف الجامح الدامي بلحظة هدوء واحدة على عتبة البيت الواحد تحت شمس الله الواحدة.

لم يذهب دمك هدراً يا عبد الرحيم محمود..هوذا يعود صاخباً بالحلم مشتعلاً بالحياة، في كرمة طفلة بين حواكير عنبتا ونصبة زيتون صبية بين كروم زيتون الرامة.

لم يذهب قلبك هدراً يا عبد الرحيم محمود.لم يذهب وجهك ولم تذهب يدك.أطلَّ قليلاً من شرفة الخلود وستشاهد علماً عربياً خفاقاً على سطوح عنبتا الفلسطينية وعلى سطوح قلوبنا وضمائرنا وقصائدنا ومعابدنا ومدارسنا وشوارعنا ومعسكرات العائدين لاستقبال العائدين، حتى عودة المشرد الفلسطيني الأخير الى وطنه الأول والأخير.

ولتقرَّ عيناً وقلباً، وليطمئن روحك يا عبد الرحيم محمود إلى أنَّ دمك وحلمك وميراثك أمانة في اعناقنا إلى أن يستتب عدل الله وأمن الله في بلاد الرسالات والقصائد والتوق الحيّ إلى ملكوت الحق بين البشر.

واذكُرْ دائماً يا عبد الرحيم محمود أننا إخوتك وأننا نحبك. وأننا نصلّي إلى الله عز وجل أن يجمعنا على الحب والحرية وأن يقيض لنا في أجلنا المحتوم لقاءً أخوياً طيباً بك، بإبراهيم طوقان،بعبد الكريم الكرمي(أبي سلمى)، بمعين بسيسو، بتوفيق زياد،براشد حسين، بغسان كنفاني،

بكمال ناصر. وبسائر الفرسان من سرايا الشهداء والشعراء والصّديقين والشرفاء.

سلامٌ عليك. سلامٌ على الشجرة. سلامٌ لعنبتا. سلامٌ للرامة. سلامٌ لأهلك وذويك وشعبك ووطنك.. واغفر لي يا أخي، إغفر لي دمعةً تهوي على قلمي وأصابعي محاولةً اللحاق بدمك وروحك اللذين أهويتَ بهما بلا هوادة، على تراب الآباء والأجداد.

واسلم لأخيك

سميح القاسم

لـ"كل العرب" موقف

نماذج من افتتاحيات صحيفة "كل العرب" التي كتبها سميح القاسم تحت العنوان الأسبوعي لـ"كل العرب" موقف...

ألبهيمة!

* لا ينقص بلادنا، ولا ينقص العالم، مزيد من التحريض العرقي والعنصري والديني. كذلك فلا تنقصنا ولا تنقص أحدا في هذا العالم التجربة والخبرة والعظة من مآسي التعصب والتحريض والعنف الدموي.

ولأسفنا الشديد فإننا نلحظ في الآونة الاخيرة تصعيداً دراماتيكياً في التحريض الديني والعنصري ضدنا، من أوساط يهودية دينية متطرفة. واذا كان مثل هذا التحريض قد اعتُبر في الماضي ظاهرة هامشيةً فإنه يحظى في هذه الأيام بالدعم الرسمي.. وإلا فكيف يمكن لنا أن نفسر رسالة نائب وزير المعارف بيلد، إلى غلاة المتطرفين من دعاة هدم قبة الصخرة الشريفة والمسجد الأقصى المبارك لإعادة بناء هيكل سليمان الوهميّ الخرافيّ؟!

لقد حملت رسالة بيلد، المسجلة بالڤيديو، من التعاطف والتأييد والحماس، ما تقشعرّ له الأبدان، وما يؤكد على أن ما سمي سابقاً بالظاهرة الهامشية، هو في الحقيقة تيار فكري سلفي متغلغل ومتحصّن في عقول ومشاعر أشخاص يحتلون مواقع مركزية في جهاز الحكم الإسرائيلي.

ولا يفوتنا التذكير بأن بعض من هنأهم نائب وزير المعارف وشجعهم وبارك نهجهم وحرّضهم هم من أتباع الرابي كوك الشهير خلفا عن سلف.. ومن "الدرر" الفكرية -الروحية- الدينية التي أطلقها هذا الرابي قوله "إن الفرق بين اليهودي والجويْ- غير اليهودي- هو أكبر بكثير من الفرق بين الجويْ والبهيمة!"

إن مثل هذا الكلام البهيميَ، حين يصدر عن "رجل دين" ويُنشر في أوساط الأتباع والتلاميذ "والمؤمنين"، فإنه يتحول إلى قنبلة موقوتة تنفجر على شكل السفاح غولدشتاين وأمثاله، من الذين لا يحملون من الانسان سوى صورته الشائهة!

كنّا أكّدنا سابقاً، وها نحن نؤكد الآن، أن اللغة البهيميّة التي يعيشها هؤلاء ويستعملونها بكثافة في حياتهم اليومية، والتي تشكّل جوهر أعماقهم وتاريخهم ورؤاهم، لا تستطيع أن تستدرجنا إلى مواقعهم أو إلى مواقفهم، وسنظل الأرقى والأنظف والأشرف، وسنظل محصنين بحضارتنا وتربيتنا وتراثنا ضد جراثيم العنصرية وإفرازاتها البهيميّة.. بيد أننا ملزمون بالتحذير من غيمة الغازات السامة التي تنفثها أغوارهم المعتمة الهمجية، والتي تتصاعد من أوكارهم وجحورهم في محاولة يائسة وبائسة لاكتساح آفاقنا ولتسميم الفرصة الضئيلة أصلاً، للتعايش بين أبناء شعبين طالما تجرّعا كؤوس الوجع والمهانة والبؤس من أيدي الطغاة العنصريين الهمج من مختلف التيارات التي تدّعي الحضارة وتتشبث بالحقارة!

إحذروا. إحذروا. إحذروا!!!

إحترنا يا قرعة..

* هل هي ظاهرة فنية؟ وهل هي حالة إدمان؟ أم هي عقدة نفسية؟ إحترنا معك يا قرعة الإعلام الإسرائيلي. كل ما يفعله الفلسطينيون فهو سلبي وسيّيء.. وكل ما لا يفعله الفلسطينيون فهو أيضا سلبي وسيِّيء. إذا لم يعدم الفلسطينيون قاتلاً فهم متستّرون على القتلة. مشجّعون للجريمة.. وإذا أعدموا قاتلاً فهم قتلة لا يعرفون الرحمة.. وكل صحفي اسرائيلي يتحول إلى عالم سايكولوجي ومحلل سوسيولوجي وخبير بيولوجي ومنظّر إيديولوجي، وعليه قس.

ويجوز القول إن ما كتبه السيد عاموس كرمل في يديعوت أحرونوت (٢ / ٩) حول إعدام قاتلين من لواء غزّة، هو أنموذج تقليدي، إلى درجة الكليشيه، تتجسّد فيه العقلية الاسرائيلية السائدة، بلا تعميم، بشأن كل ما يصدر عن الفلسطينيين.

وبغض النظر عن موقفنا الشخصي بشأن الإعدام ومبرراته والمجريات القانونية فلا نستطيع إلا أن نسجّل دهشتنا من الزجّ بياسر عرفات وفريح أبو مدّين وزياد أبو زياد والمفاوضات السياسية في موضوع هو من اختصاص المؤسسة القضائية شرعياً ومهنياً.. ومن غير اللائق، في أبسط تعبير، أن يدافع أحد عن تصرفات الحكومة الاسرائيلية، أو أن يبرر عرقلتها المنهجية للمفاوضات وللعملية السياسية برمتها، تحت قناع كاذب من الحرص الكاذب على حقوق الانسان الكاذبة تحت الاحتلال الكاذب!

وهذه العقلية البدائية التي تنعت الفلسطينيين بالبدائية لا تكفّ عن تمجيد الديموقراطية الأميركية وحقوق الإنسان على الطراز الأمريكي، علماً

بأن الذين أعدمهم القضاء الأمريكي عبر تاريخه القصير أكثر بكثير ممن أعدمهم القضاء الفلسطيني والعربي عبر تاريخه الطويل!
ومن المقرف حقاً أن يسمى ما يحدث في أمريكا إعداماً (הוצאה להורג- بالعبرية) أما ما يحدث في فلسطين فيسمى "قتلاً قضائياً" (רצח משפטי- بالعبرية)!
ثمة نيّة مبيّتة لتشويه صورة الفلسطيني أمام الرأي العام الاسرائيلي، وأمام الرأي العام العالمي، من بعد، بشكل بعيد جداً عن السذاجة أو النقص في المعرفة، وليس لغاية الدفاع عن حقوق الانسان، وهي غاية شريفة ومشرّفة، بل لتمرير مشاريع سياسية- احتلالية- استعمارية، تنتقص من إنسانية الانسان الفلسطيني لتبرير الانتقاص من حقوقه الأساسية والجوهرية وفي مقدمتها حقه في تقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة وعاصمتها القدس العربية.
ولا يتكرَمنَّ أحد على شعبنا بدروس الأخلاق فلديه منها ومن تراثه وحضارته وتاريخه ما يكفيه.. والذي ينهى عن خلق لا يجوز له أن يأتي بمثله.. وفاقد الشيء لا يعطيه!! واحترنا يا قرعة منِ وين..!!

أعــور!

* لا تجوز الشماتة بأي نقص جسدي، سواء كان بالولادة أو نتيجة لحادث ما. وكثيراً ما يكون النقص الجسدي شرفاً لصاحبه، فعمى طه حسين ليس مبرراً للشماتة. والمناضل الذي فقد عينيه في معركة الدفاع عن الوطن هو أفضل بكثير من خائن بعينين جميلتين! لكن في الوقت نفسه، لا يضير الأعور أن يعترف بأنه أعور، ولا يحق له أن يباهي الناس بعينيه الساحرتين.

ومجتمعنا اليوم أعور. ومع ذلك فهو يعيش في غيبوبة فصامية، تدفعه إلى اعتبار قبحه جمالاً ونقيصته كمالاً!

ومع اقتراب المعركة الانتخابية (ولا بأس في تسميتها بالمعركة!) فإن كثيرين منّا يفاخرون بقبحهم ويجرؤون على محاولة فرض مقاييس قبحهم باعتبارها مقاييس الجمال الأسمى.

مثلاً، فإن العنف على خلفية الانتخابات لا يصحّ أنموذجاً لحرية الرأي والديموقراطية وحق التعبير عن النفس! وسيظل العنف المتشكل في "الطُوَش والغوشات" مظهراً من مظاهر التخلف حتى لو وقف وراءه دكتور أو محام أو مهندس أو شاعر أو رسام!

والقبلية بنيةٌ اجتماعية جاهلية، لم تنته إلى اليوم لكن لا يجوز تكريسها حتى في الحياة الاجتماعية والسياسية.. والذي يرفض تزويج ابنته من شاب ينتمي إلى العائلة الأخرى في بلده بسبب خلاف قديم على المخترة أو عضوية المجلس، هو شخص متخلف مئة بالمئة ولا يجوز لنا السماح له بالاختباء وراء التبريرات والفذلكات الديماغوجية.

والذي يدافع عن إطار "ثوري تقدمي" وينتمي إليه ويدعو إلى دعمه ما

دام المرشّح الأول ابن طائفته أو ابن عائلته، ثم ينقلب رأساً على عقب لأن المرشّح هذه المرة كان من طائفة اخرى أو عائلة أخرى، فهو شخص دجّال وكذّاب وحقير.

والذي يحارب الطائفية علناً ويرتكبها سراً، أو يندد بالعائلية كلاماً ويدمنها فعلاً، و "يبيع" الناس ثوريّةً وتقدميّةً لا يحق له الإدعاء بقيادة الجماهير وتوعيتها، لأنه في جوهره شخص مقود بالغرائز مفتقر للوعي.

أعرف شخصاً كان يقول إنه لا يصدّق عبد الناصر ولا يصدّق أحداً إلا إذا كان من حزبه وطائفته وعائلته.. وكان بعض الناس يضحكون تمتعاً بهذا القدر الهائل من "الشكّ الثوري".. ولم يمض طويل وقت حتى اكتشف هذا "الثوريّ" أن الناس في "حزبه وطائفته وعائلته" هم أيضاً بشر عاديون ويمكن أن يغيّروا آراءهم ويستبدلوا مواقعهم ومواقفهم وأن رهانه الحزبي والطائفي والعائلي لم يكن رهاناً "ثوريا" بل كان تنفيساً عن عقدة طائفية وعائلية اختبأت طويلاً وراء "قناع ثوري" ما فتيء أن سقط متمرغاً في وحل الواقع!

وهناك من يكتب المذكرات عن تاريخه الثوري ويدلّل على الوقائع بأسماء أشخاص سقطوا في أول الطريق وتحولوا إلى أدوات في يد السلطة، ومع ذلك فإنه يتجاهل سقوطهم لا لسبب إلا لأنهم من طائفته أو عائلته، واهماً، كما يبدو، أن ذاكرة الشعب قصيرة الأمد وأن كذبته المتكررة مؤهله لأن تصبح "حقيقة تاريخية"..

وفي الآونة الأخيرة غاظني جداً شخص يحتل موقعاً سياسياً عندنا هاجم الطائفية في إحدى الصحف رغم علمه وعلمنا بأنه لم يحتل موقعه السياسي إياه، الذي يتكلم منه، إلا لاعتبارات طائفية.. وهكذا فإنه يحتفظ لنفسه بمتعة الموقع السياسي من جهة و "شرف" محاربة الطائفية من الجهة الأخرى، موهماً ذاته بأنه يكسب الدنيا والآخرة، غير فاقهٍ أنه في

نهاية المطاف لن يستطيع الضحك لا على الدنيا ولا على الآخرة وسيظل اسمه مقروناً بهذه الازدواجية المنافقة التي تصول بلا رادع وتجول بلا مانع على حلبة العمل السياسي والاجتماعي في هذا المجتمع الأعور!
ومما يحزّ في النفس، هذا النكوص الواضح والموجع في قاموسنا السياسي حتى أن البعض لا يخجلون من الحديث عن البرايمريز (الانتخابات التمهيدية) داخل "الحمولة" أو المباهاة "بالروح الديموقراطية" التي سادت اجتماع العائلة بكل بطونها وأفخاذها وهلمجرّا!

نحن لا ننفي الحالة القبلية المستمرة في مجتمعاتنا منذ الجاهلية إلى يومنا هذا. ولا ننفي صعود الانتماء العائلي في مراحل هبوط الانتماء الحزبي أو التنظيمي الحديث.. ولا نستبعد التعامل مع إطار العائلة والطائفة وفق منهج يرمي إلى تخفيف حدة العائلية والطائفية وتحييد عنف التوتر العائلي والطائفي، بل نعتبر ذلك مهمة ثورية من الدرجة الأولى. لكننا نرفض تمرير الغرائز العائلية والطائفية تحت ساتر من دخان الكلام الثوري والشعارات التقدمية والجُمل القومية. كما يحدث الآن في أطر كثيرة مدجّجة بالنعوت الحداثية بينما هي مسكونة بجراثيم العتمة الفكرية المطبقة.

في كل قرية ومدينة تسمع وترى ما لا يروق السمع ولا يسرّ البصر.. وفي كل مجتمع صغير أو كبير تلاحظ كيف أن الأعور يباهي بعينيه الجميلتين، ولا تجد أمامك سوى خيار من اثنين.. إما أن تتجاهل وتتعامى... أو أن تقولها صريحة واضحة: يا سيدي أنت أعور! يا مجتمعي أنت أعور! يا واقعي أنت أعور.. أعور.. أعور.. أعور.. وبلا شماتة، بل برغبة جارحة جامحة في التغيير.. مع إدراكك بأن الله لا يغيّر ما بقوم حتىً يغيّروا ما بأنفسهم.. وإنه لَصادقٌ عظيم!

عادل إمام... عزت العلايلي ... محمود ياسين...

أهلا بكم في فلسطين!

※ قبل أعوام، وفي أمسيتي بمعرض القاهرة الدولي للكتاب، قرأت قصيدة "فلسطين أولاً" التي تضمنت ترحيباً نثرياً بزوار فلسطين بعدة لغات.. :ولْكَم تو پالستاين.. بروخيم هبأيم لفلسطين.. دوبرا پاجالوڤات ڤام ڤيلستيني، أهلاً بكم في فلسطين"..

في ذلك المساء دعيت إلى العشاء في أحد منازل القاهرة العامرة واصطحبني أخي وصديقي الفنان العظيم عادل إمام بسيارته إلى مكان الدعوة.. كان هناك المرحوم "الملك" فريد شوقي والنجم الرائع فاروق الفيشاوي ونخبة من كبار النجوم والمثقفين العرب في مصر.. وقبل الالتفاف حول مائدة الطعام كان عليّ أن "أفضّ اشتباكاً" – كلامياً، بطبيعة الأمر-- بين العزيزين عادل وفاروق. كان الفيشاوي المتأجّج حماساً وطنياً جميلاً، عاتباً أو غاضباً على تصريح نُسب إلى عادل إمام يقول فيه إنه مستعد للذهاب إلى أي مكان خدمة لقضايا مصر والوطن العربي. وتحسَّبَ فاروق الفيشاوي من إمكانية إقدام عادل إمام على زيارة.. إسرائيل!!

بالطبع، فقد نفى عادل التهمة مؤكداً أنه يقصد المناطق الفلسطينية المحررة والتي تحكمها السلطة الوطنية.

وحين سألني الإخوة رأيي قلت بهدوء: "غزة وأريحا هما منطقتان محررتان بقوة الانتفاضة التي هي فصل غير منقطع عن النضال

الفلسطيني الطويل والشاق بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية.. وأضفت أن العرب الفلسطينيين في المناطق المحررة هم أشقاؤكم يا مصاروة.. وهم بحاجة لدعمكم.. ومن حقّهم عليكم أن تزوروهم وتشدوا من أزرهم في الزمن العصيب، كما فعلتم دائماً " .. ورفضتُ الزجّ بمثل هذه الزيارة في إطار "التطبيع" ..

ظهيرة الثلاثاء الماضية.. يرنّ الهاتف في مكاتب "كل العرب" وتُحوَّل المكالمة إليّ.. عزَّت العلايلي يريد أن يكلمك.. وفوجئت بأخي وصديقي الفنان الكبير يصيح كعادته: سميح يا أخويا.. أدينا وصلنا.. الحلم تحقق.. أنا بكلّمك من غزة.. وعادل جنبي حيكلمك.. إزاي البيت.. إزَّيَّك.. وقدم صوت عادل إمام على الفور.. دافئاً مفعماً بالألفة كعادته..

ها هما هنا ومعهما الفنان الكبير محمود ياسين الذي أسعدتني كثيراً قراءاته الشعرية لي ولزملائي في القاهرة وغيرها من العواصم العربية..

إنهم هنا.. على أرض الوطن.. على أرض فلسطين.. يشاركون بكل جوارحهم في "تطبيع" الوضع الفلسطيني والحالة العربية.. إنهم هنا يؤسسون للتطبيع العربي– العربي.. إخوتي أشقّائي أصدقائي أحبّائي.. هنا.. يدشّنون مع الأجنحة الفلسطينية المدرَّبة على العواصف، عهداً جديداً من الطيران الحرّ في سماء الكون الصافية من غيوم الغاز المسيل للدموع.. غيوم الاحتلال والقهر والقمع.. وهم يدركون، كما ندرك، أن رموز الاحتلال وشاراته القليلة والضئيلة واليائسة التي ما زالت متناثرة هنا وهناك، زائلة لا محالة.. ومع كل إقلاع وهبوط في مطار غزة الدولي على اسم ياسر عرفات، سيقتطع العذاب العربي الفلسطيني والكفاح الحيّ النازف المؤمن بصراطه المستقيم على الأرض وفي السماء، سيقتطع بُضعةً أخرى من لازورد السماء وذهب الأرض..

يا عادل إمام وعزت العلايلي ومحمود ياسين.. ويا كل وفود العرب

والعالم إلى الحرية المبدعة والسلام الحر على الأرض الطيبة المباركة..
أهلاً بكم في فلسطين.. أهلاً بكم في قلوبنا.. وأهلاً بكم في.. فلسطين!

صدوع في خنادق الانتماء...

* لاحظنا في العامين الأخيرين عودة غير منطقية لدى قطاعات واسعة من شعبنا، إلى خنادق الانتماء القديمة: العشيرة، الطائفة، الإقليم.. وبرزت هذه العودة التراجعية في ترميم دواوين العائلة، وتجديد ظاهرة الاجتماعات العائلية الموسَّعة والاعلان في وسائل الإعلام، وبجرأة متناهية، عن اجتماع العائلة بجميع بطونها وأفخاذها وهلمجرا.. للبت في قضايا عامة تتصدرها في هذه الأيام قضية الانتخابات البلدية. وكالعادة، فان الموضوع المطروح هو "كرامة العائلة" ودورها في البلد ومركزها الإجتماعي، وهي أمور مشروعة لا يختلف عليها اثنان من أية عائلة عربية.. بيد أننا لاحظنا تراجعاً سريعاً عن هذه الظاهرة، وما فتيء الأمر أن تحول إلى صراع بين البطون والأفخاذ والهلمجرّا حول أدوار القيادة. فيما مضى كان بعض شيوخ العائلة يجتمعون على فنجان قهوة يعلنون أن فلاناً هو المرشّح هذه المرة للبلدية أو للمجلس المحلي فيلتزم الجميع بالقرار ويا دار ما دخلك شرّ..

إذن، فما الذي يحدث الآن؟ ولماذا نلاحظ تعدد المرشحين من العائلة الواحدة للمنصب الواحد؟ والجواب البسيط والمباشر هو أن المرتّبات الكبيرة التي يتلقاها الرؤساء والقائمون بالأعمال وسائر الموظفين الكبار في السلطة المحلية أصبحت شديدة الجاذبية والإغراء، لا سيما في ظروف التأزم الاقتصادي واتساع رقعة البطالة وارتفاع غلاء المعيشة وانخفاض قيمة الشيكل. ثم إن كثيرين من الموظفين أو المتقاعدين يرون في الوظائف البلدية فرصة جيدة لتأمين مستقبلهم الاقتصادي ما دام الرئيس أو القائم بالأعمال يقبض آلاف الشواقل بعد تقاعده ويحتفظ بكثير من الامتيازات الرسمية والاجتماعية المجدية..

ويطرح نفسه هنا سؤال واضح: وماذا مع "كرامة العائلة"؟ أم إن "كرامة العائلة" هذه لا تتحقق إلا إذا تنازل ابن عمي عن طموحه الشخصي لصالحي أنا؟ وما دام ابن عمي يرفض التنازل ويتشبث بمصلحته الشخصية، فلماذا لا أتشبث أنا أيضاً بمصلحتي الشخصية؟ ولماذا لا أرشح نفسي ضدّه؟ لا بل سأفعل.. سأرشح نفسي لأن المنصب أصبح "طمعة" ولتذهب "كرامة العائلة" في ستين داهية!!

ثمة خدوش وصدوع وانهيارات في خنادق الأنتماء القديمة التي سعى الكثيرون لترميمها بشكل مفتعل وليس لمصلحة العائلة بل للمصلحة الشخصية بحد ذاتها ولا لشيء سواها.. ولم يكن شعار "كرامة العائلة" سوى حذلقة دعائية سايكولوجية وضريبة كلامية من أجل ما يتجاوزها إلى الشهوات والمطامع الفردية المضمرة!

لقد قضت جماهيرنا خمسين عاما تحت النظام الاسرائيلي وهو نظام رأسمالي اجتاحته في الأعوام الأخيرة بشكل خاص نزعة پراچماتية واضحة، على النسق الأمريكي الصِّرف..

وكما يبدو فإن الوعي الاجتماعي الرأسمالي والأخلاق الرأسمالية أعمق في أغوار مجتمعنا مما يبدو على السطح. والوعي الاجتماعي الرأسمالي محكوم بالفردية، والاخلاق الرأسمالية رهينة للمشاعر الذاتية وللمشاريع الخاصة، وهي من هنا تتناقض تماما مع الوعي العشائري التقليدي القائل بتفاني الفرد في مصلحة المجموع.

وهكذا، فإن قشرة الأنتماء العشائري والطائفي والاقليمي تخفي في داخلها نقيضها الكامل والنابع برمّته من النزعة الرأسمالية الأنانية والتي تطالب المجموع بالتفاني في مصلحة الفرد.

هل هي ظاهرة تخلُّف؟ أم هي ظاهرة تقدم؟ لا بدّ من تعمُّق السؤال قبل طرح الإجابة.. إنما تبقى الحقيقة الناجزة في مجتمعنا الراهن، حقيقة الصدوع الجديدة في خنادق الانتماء القديم...

لا جديد تحت... الغيمة!

لن أظلم الشمس. لن ألتزم حرفية التعبير المألوف "لا جديد تحت الشمس". فوثيقة زاكين ليست شمساً، بالطبع، والسياسة القديمة الجديدة التي تختزنها هذه الوثيقة أيضاً، هي أشبه بغيمة داكنة قاتمة، غيمة بلا مطر، بلا أطفال وشجر. غيمة عاقر من الحلم عاطل من زينة الحياة الدنيا والأمل بمستقبل أفضل وأجمل، من حاضر غائم قاتم كوجه وثيقة زاكين، أيضاً..

ولماذا "أيضاً" هذه؟

لأننا عرفنا من قبل عدة وثائق مماثلة أبرزها، على سبيل المثال، وثيقة لوبراني، ومن بعدها وثيقة كينغ..

كان السيد أوري لوبراني مستشار رئيس الحكومة لشؤون "الأقلية العربية".. وحين نشرت وثيقته بشأن هذه الأقلية فقد قامت الدنيا ولم تقعد لأن الوثيقة نسبت إلى السيد لوبراني هذا القول بأنه على العرب في اسرائيل أن يكونوا حطّابين وسقاة ماء (أنظر التوراة).. وفي وقت لاحق سمعت محاضرة للسيد لوبراني نفى فيها ما نُسب إليه قائلاً إن اوساطاً معينة في المؤسسة الحاكمة أرادت لعرب البلاد هذا المصير، وليس هو شخصياً. ولم يكن استعماله لهذا التعبير إلا تحذيراً من مغبة هذه السياسة.

ومهما يكن من أمر التصريح والنفي، فقد أثبتت الأيام أن حكومات إسرائيل المتعاقبة عملت بجهد ملحوظ من أجل أن يكون العرب في وطنهم مجرد حطابين وسقاة ماء "للأسياد" الوافدين من كل جهات الدنيا.

ثم قامت الدنيا ولم تقعد يوم نُشرت وثيقة كينغ.. والسيد كينغ هذا كان

حاكم لواء الداخلية الاسرائيلية في منطقة الناصرة.
وتضمنت وثيقة كينغ توصيات للسلطة في تعاملها مع المواطنين العرب، منها ضرب العرب بعضهم ببعض والعمل على تشكيل أحزاب " قومية " لضرب الشيوعيين والجبهة، وتشويه سمعة القادة الوطنيين التقدميين بالدسّ على أخلاقهم وسلوكهم ومحاربتهم في حياتهم الخاصة لإبعاد الجماهير عنهم، وغيرها من النصائح "الحكيمة" التي جاء في حينه ردّنا الواضح عليها: منكم العنف ومنّا العنفوان!!
أما هذه الوثيقة الجديدة فلا نجد لها إسماً أفضل من " وثيقة زاكين " لأنها تجمّعت قطرةً قطرةً، وبحثاً أكاديمياً تلو بحث أكاديميّ في مكتب السيد موطي زاكين مستشار رئيس الحكومة السيد بيبي نتنياهو لشؤون المواطنين العرب.
وخلاصة هذه الوثيقة التي تمّ تسريبها إلى الرأي العام بواسطة الصحفي شالوم يروشالمي عبر الصفحة الأولى من معريف (الأحد ١٦/٨/٩٨)، أن " عرب إسرائيل قد يتحولون إلى تهديد استراتيجي! ".
ويتجسّد " خطرنا الاستراتيجي "، وفق وثيقة زاكين، في إمكانية المطالبة بالحكم الذاتي وبلورة ثقافة قومية مناقضة للطرح السائد بأن اسرائيل هي دولة يهودية وليست دولة كل مواطنيها.
وتجد الوثيقة قسطاً "كبيراً" من "التهديد" في الحركة الاسلامية، بشقيها الشمالي والجنوبي على حد تعبير الوثيقة.. فالشقّ الشمالي بقيادة الشيخ رائد صلاح، هو البُعبُع المخيف في طرحه وفي نواياه. أما الشق الجنوبي بقيادة الشيخ عبدالله نمر درويش فهو يستعمل الطرح البراغماتي إلا أنه في الخفاء وفي الغرف المغلقة يلتقي مع شطره الشمالي!!
وتحذّر الوثيقة من "التطوُّر الايديولوجي الانعزالي" بين الجماهير العربية، معزّزة المخاوف بتهرُّب العرب من دفع الضرائب (ضريبة

التلفزيون، مثلاً!!) وفقدان سيطرة الشرطة على الوسط العربي وتعدد الزوجات والأنشطة المشتركة مع أبناء الشعب العربي الفلسطيني في الضفة والقطاع وغيرها..

وفي كل هذه المحاذير يطفو على سطح الذهن المثل القائل رمتني بدائها وانسلَّت! فليس ما يسمى "بالتطوُّر الايديولوجي الانعزالي" سوى سعي الجماهير العربية الدائم والمثابر لمواجهة المشاريع العنصرية المفضوحة، مثل مشروع تهويد الجليل وتهويد وادي عارة وتهويد النقب والإمعان في سحق المواطنين العرب في المدن المختلطة وتكريس عدم الاعتراف بعشرات القرى العربية وحجب البنى التحتية والخدمات المدنية عنها.. وإضافة الى تشكيكنا في الزعم بأن ٨٠ بالمئة من اليهود يدفعون ضريبة التلفزيون بينما يقتصر الدفع على ٥ بالمئة من المواطنين العرب، فلا بد من الإشارة إلى أن العرب يدفعون الضرائب لقاء خدمات تلفزيونية وإعلامية هي بأغلبيتها الساحقة مخصصة للمواطنين اليهود وباللغة العبرية. ويلاحظ كل مراقب موضوعي أن العرب الذين يشكلون ٢٠ بالمئة من مجموع السكان لا يحظون حتى بالخمسة بالمئة من البث لدافعي الضرائب العرب!!

أما التوصيات الوزارية "المسؤولة" المرافقة للوثيقة فهي كافية لرفع ضغط الدم في عروقنا إلى درجة الغليان، لما فيها من عنصرية بشعة وتعالٍ منحطّ وجهل مطبق.. يوصي الوزير شارون بمنع تعدد الزوجات، وبغضّ النظر عن موقفنا من تعدد الزوجات، فإن توصية الوزير شارون تدل على أن الرجل يتعامل معنا بعقلية الكمّ وبالنظرية المالتوسية الرهيبة، لا بعقلية الإنسان المسؤول الذي يعنيه نشوء إنسجام إنساني بين شعبين متداخلين في الجغرافيا والتاريخ والمصير.

أما الوزير رفّول فيوصي، أو يطالب، بمنع "إستيراد" النساء العربيات من الضفة والقطاع، ولا شك في أنكم تلاحظون لفظة "الاستيراد" هذه

المشبعة بالتحقير العنصري والتي تدلّ على موقف لا يرى في المرأة العربية إنسانة تُحبّ أو تُحَبّ وتتزوج وتكوّن أسرة، بل هي "شيء" يُستورد "للاستهلاك"، كما يتم استيراد بقرة أو غسالة أو تراكتور!!
اما الوزير مردخاي فيوصي بمنع الفعاليات التي يقوم بها "عرب إسرائيل" في المناطق.. وأية فعاليات هي المقصودة؟ وما وجه "الخطر الاستراتيجي" في هذه الفعاليات؟
هل يرى الوزير مردخاي في حملات الإغاثة التي قدمت الحليب والحذاء والقميص لأطفالنا المحاصرين في المدن والقرى ومخيمات اللاجئين خطراً إستراتيجياً؟
أم أنه يرى في عروض فرق الرقص الشعبي والفرق المسرحية والقراءات الشعرية وأمسيات الغناء والندوات الثقافية خطراً إستراتيجياً، علماً بأن الفرق اليهودية تجوب العالم كله وعمليات "الإغاثة" الاسرائيلية سبّاقة دائماً؟!!!! إذن لماذا يسمح لنفسه بما لا يسمح به لغيره؟!!
ويضيف الوزير كهلاني بعداً آخر فيقترح تقوية العمل المخابراتي وتعزيز تواجد الشرطة، حتى لكأنه يحلم بالعودة إلى أيام الحكم العسكري!!
وليس هذا فقط.. فثمة توصيات هي من قبيل المضحك المبكي..
هناك، مثلاً من يوصي بإدخال المفاهيم الاسرائيلية إلى التعليم العربي، مثل "السلام"، "التعاون" و"المساواة"..
.يا صلاتك يا نبي.. فهل "السلام" هو حقاً مفهوم إسرائيلي؟ وهل "التعاون" هو صدقاً مفهوم إسرائيلي؟ وهل المساواة هي فعلاً مفهوم إسرائيلي؟ واذا كان الأمر كذلك فإنه يصبح من حقنا أن نتساءل تساؤل العارف: ومن الذي يقتل السلام كل يوم؟ ومن الذي يهدم التعاون كل ساعة؟ ومن الذي يدوس المساواة كل لحظة؟
ولا نستطيع تجاهل توصية أخرى مرافقة لوثيقة زاكين، تقول بضرورة

تكثيف حضور رئيس الحكومة في الوسط العربي... أهلاً وسهلاً!
وضرورة تعميم أعلام الدولة وشعاراتها في المؤسسات العربية، وتعيين معلمين يهود في المدارس العربية ومعلمين عرب في المدارس اليهودية.. ليش لأ. انا شخصياً تعلمت العبرية على يد معلم إسمه رفائيل وظللت لسنوات ألفظ الراء غيناً لأنه كان إشكنازياً.. لكنّ كل هذه التوصيات تظل في دائرة من اثنتين: العنصرية والجهل...

والتوصية الوحيدة القادرة على منع الخطر العربي على اليهود والخطر اليهودي على العرب هي توصيتنا المتكررة عقودا من الزمن، بالتخلي عن المفاهيم، والأوهام والأكاذيب العنصرية، والانتقال إلى نهج سياسي -إيديولوجي- حضاري، يعترف للعرب بأنهم أصحاب بلاد وأصحاب حق وأنهم أنداد متساوون لا رهائن تحت رحمة هذه الحكومة أو تلك.. والاعتراف بحق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني وحقه في إقامة دولته المستقلة على أرض آبائه وأجداده وعاصمتها القدس العربية، والنكوص عن أطماع الاحتلال والتوسع، والصحو من سكرة التفوق العرقي الكاذب والخادع والباطل والمميت، ومدّ جسور الأخوة والاحترام القومي والانساني مع الأمة العربية، والتخلص مرة وإلى الأبد من الوثائق القاصرة العاجزة التافهة والعنصرية المهلكة، ومنها بدون شك، وكما رأينا جميعاً، هذه الوثيقة القديمة الجديدة، التعيسة، البائسة... "وثيقة زاكين"..

لقد نفى رئيس الحكومة أن يكون قد تلقّى وثيقة كهذه.. ونفى موطي زاكين وجود وثيقة كهذه. ولا بأس في النفي، لكنه ليس كافياً. وبالفعل، بالممارسة، بالحقائق الملموسة على أرض الواقع، بإعطاء الجماهير العربية هنا حقها المؤكد والأبدي، بذلك، وبذلك فقط، يتحقق النفي الفعلي لوثيقة زاكين وكل ما أوردته صحيفة معريف من أمور كافية لكي يقشعرّ البدن ويغلي الدم في العروق...

زعـــرنة في السياســـة
وزعــرنة في الرياضـة

*بريطانيا، التي كانت عظمى في التاريخ وفـي الجغرافيا، أخذت فـي الانكماش منذ الحرب العالمية الثانية، حتى عادت إلى حجمها الطبيعي نسبياً، بين الدول الأوروبية ودول العالم الأخرى.
غير أن شريحة واسعة من الانجليز لم تقبل بقسمتها كما يبدو، وراحت تعبّر عن سخطها ومرارتها واحتجاجها بوسائل همجية لا تليق أبداً ببلد يدّعي الانتماء إلى بلدان العالم الأول، ويتعامل بعنجهية سخيفة مع بلدان ما يسمى بالعالم الثاني (أوروبا الشرقية) والعالم الثالث (آسيا، افريقيا وأمريكا اللاتينية)..
ومنذ أعوام، والحياة الرياضية الأوروبية والعالمية تعاني من تصرفات الأوباش والزعران الانجليز، "مشجّعي" الفرق الرياضية الأنجليزية، داخل بلادهم وخارجها.
قبل أية مباراة وفي أثنائها وبعد انتهائها يعبّ الزعران الانجليز أطناناً وأمتاراً مكعّبة من البيره والنبيذ الرخيص، وينطلقون في شوارع المدن المضيفة مثل قطعان البوفالو الأمريكية، يغنّون بأصوات بشعة ويضجون ويعتدون على المارّة الآمنين ويقلبون السيارات ويحرقون الحوانيت ويحطّمون المقاهي ويشتبكون مع أنصار الفرق الأخرى والشرطة المحلية، محولين ملاعب الرياضة إلى ميادين حرب مستبدلين "الروح الرياضية" "بالريح العنصرية".. حتى لكأنهم اتخذوا قراراً بتطبيق الزعرنة السياسية الانجليزية الشهيرة على حياة الشعوب

ومهرجاناتها الرياضية.

لاشك في أن الذين أخرجوا فكرة الموندیال إلى حيّز التنفيذ وضعوا نصب أعينهم مصلحة الشعوب والرغبة في تحقيق التآخي الانساني والتعاضد البشري على هذا الكوكب، كوكبنا الصغير والمهدد بكوارث الانفجارات النووية والكوارث الطبيعية وتلويث البيئة وتضييق الحصار على الانسان القلق المأزوم الخائف على قوت عياله وعلى اوكسجين أنفاسه وزهور حديقته.

لقد كان الرد العربي التونسي على زعران الانجليز في مرسيليا جيداً، ولم يكن صدفة أن يُشبِّه الصحفيون مشهد الاشتباكات في المدينة بين الهمج الانجليز والشبان العرب التوانسة بمشاهد الانتفاضة. وإضافة إلى "العلقة" الساخنة التي تلقّاها أوباش الانجليز من الشبان العرب فقد "آجرت" بالزعران الانجليز الشرطة الفرنسية أيضاً، وكان على الشاب العيّوق توني بلير رئيس الوزراء الانجليزي أن يعتذر عن تصرف زعرانه- مواطنيه في فرنسا، وكان طبيعياً أن يحذّر عقلاء الإعلام والفكر في بريطانيا من الصورة السلبية التي يلصقها هؤلاء الأوباش بشعبهم وببلدهم في العالم كله، الصورة البشعة المنفلشة على شاشات التلفزيون للمليارات من البشر على جميع أصقاع المعمورة.

وحتى لا ينتهي الأمر عند حد التنديد والاستنكار فإننا ندعو إلى ممارسة الضغوط على المؤسسات الرياضية الدولية لاستبعاد الانجليز من المباريات الدولية وتحميل الفرق الانجليزية تبعة تصرف مؤيديها، حثالات المجتمع الرياضي العالمي.

ألتبادلية!

*بَلَغَنا أن أحد مرشّحي حزب "تسومت" لبلدية نتسيرت عيليت، قرب الناصرة، يقترح تشجيع سكان تلك المدينة "نتسيرت عيليت" العرب على بيع شققهم والعودة إلى أماكن سكنهم الأصلية.
وبما أن شعار "التبادلية" أو "التناظرية" أصبح شعاراً مركزياً في سياسة السيد بيبي نتنياهو رئيس وزراء اسرائيل، وفي إعلام حكومته، بكل مركّباتها، ومنها حزب "تسومت"، حزب رفول، رفائيل إيتان الصراصيري، فإننا نقترح على هذه الحكومة تبنّي شعار "التبادلية" في نتسيرت عيليت أيضاً، وإلا فسيكون سكان المدينة اليهود مظلومين وعرضة للتمييز.. إذ، لماذا "يتمتع" العربي دون جاره اليهودي في نتسيرت عيليت، المقامة على أراضي الناصرة وعين ماهل وغيرها من القرى العربية، بحق العودة إلى مكانه الأصلي؟.. ولماذا يُحرم المواطن اليهودي من تشجيع مؤسسات البلدية والدولة على بيع شقته والعودة إلى بلده الأصلي؟!
تريدون التبادلية؟ لا بأس، شريطة الامتناع عن الانتقائية.. يسقط التمييز القومي.. وليتمتّع سكان نتسيرت عيليت، قرب الناصرة، بحق بيع منازلهم والعودة من حيث أتوا... آمين.

محمية طبيعية

* تفتق ذهن المؤسسة الحاكمة في بلادنا عن طرفة سياسية اجتماعية تاريخية، تقول بمطالبة الشعب الفلسطيني بالالتزام بإبقاء ما يسمى "بصحراء يهودا" من الأرض الفلسطينية، "محمية طبيعية" .. وبكلمات أخرى فإن ذلك يعني حرمان هذا الشعب من استغلال قطعة كبيرة من القطعة الصغيرة التي بقيت له من وطنه الصغير.

ونظرية "المحمية الطبيعية" هذه لا تقتصر على مسألة المفاوضات مع السلطة الوطنية الفلسطينية، بل تطالنا نحن أيضاً العرب الفلسطينيين "المواطنين" في الدولة العبرية. فها هي وزارة الاسكان، حسب وسائل الاعلام العبرية، أمس، تضع مشروعا لإسكان العرب في شقق داخل عمارات متعددة الأدوار، للتوفير في الأرض المخصصة للبناء. وبما أن العرب لا يحبون السكن في العمارات المشتركة(!!) فإن الوزارة "الذكية" تقترح ان تكون لكل شقة شرفة بمساحة معينة مكسوة بالتراب الأحمر ليمارس العرب عليها "هواية زراعة الخضار"!!

بقدر ما نعلم فان العمارات السكنية الشاهقة في الوطن العربي أكثر بكثير من مثيلاتها في إسرائيل، فمن أين جاءت وزارة الاسكان هذه بهذه الأفكار، إن لم تكن اقتبستها من نظريات المستوطنين البيض في أمريكا وأساليب "المحميات الطبيعية" للهنود الحمر، أو ممارسات المستعمرين الأوروبيين مع "السكان الأصليين" (أبوريجينال) في أستراليا وغيرها؟!

لسنا هنوداً "حمراً" ولستم بيضاً أوروبيين ولا نحتاج الى محمياتكم الطبيعية.. حاولوا أن تخجلوا.. عيب!! كفى!!

كيف نضغط على من؟

* غداة اللقاء الأخير بين د.محمود عباس (ابي مازن) ووزير الأمن الاسرائيلي إسحق مردخاي، كنت في الطريق من الرامة الى مكاتب "كل العرب" في الناصرة، وعلى مقربة من إحدى محطات الوقود الثماني الجاهزة لخدمة المسافرين على جانبي الطريق الذي احفظه عن ظهر قلب، لفت نظري على عدّاد السيارة نقص في الوقود.

تساءلت في سرّي: ترى هل اضاف لقاء المسؤولين الكبيرين وقوداً كافياً لحرك المفاوضات السياسية المتوقفة على رصيف التاريخ جرّاء اكثر من عُطل آلي وأكثر من نقص مقلق على عدّاد الوقود؟

وما إن أوقفت السيارة بجوار مضخّة البنزين حتى هرع اليّ صديقي العامل القديم في هذه المحطة والذي ما إن يراني حتى يضخّ على رأسي كل ما تجمع لديه من أسئلة عن أحوال الدنيا، منذ اللقاء السابق.

سألني بغضب واضح هذه المرة: لماذا؟ لماذا اجتمعوا مع مردخاي؟ ما الفائدة من هكذا اجتماعات؟ أما ملّوا هذا النوع من القعدات الفاضية والتي لا يطلع منها شيء؟

قلت، بهدوء طبعاً: هوّن عليك يا صديقي.. فالأمور أكثر تعقيداً مما يبدو على شاشات التلفزيون، ويجب ألا ننسى ما سبق هذا اللقاء من جمود في المفاوضات جرّاء الرفض الاسرائيلي الرسمي حتى للورقة الأمريكية، وتكديس الشروط التعجيزية حتى لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه من خطة الانسحاب الاسرائيلي الجزئي الجديد بنسبة ١٣,١٪.. يجب ألا ننسى وجود قوى داخل الحكومة يمثلها حزب المتدينين القوميين (المفدال) والأصوليون الحيروتيون مثل الوزير أريك شارون والوزير

السابق بيني بيغن وغيرهما ممن يرفضون أوسلو ومشتقاتها وما ترتب عليها جملة وتفصيلا...

هذه القوى غير معنية أصلاً بتجديد أي شكل من أشكال الحوار، وغير معنية بلقاء أبي مازن ومردخاي.

إن العزل بين الوقائع وعدم الانتباه الى التفاصيل المحيطة بالحدث، أي حدث، من شأنه تشويش الرؤية وطمس ملامح الصورة السياسية في مرحلتها العينية، وعليه فلا نستطيع التعامل مع موضوع هذا اللقاء إلا من خلال الرؤية الشاملة لتفاصيل الموقف لدى جميع الأطراف.

قال صديقي. وهو يمدّ إليّ يده بالصحيفة التي توزع مجاناً على زبائن المحطة: حسناً، فليكن هذا اللقاء، لكن ماذا عن الضغط؟ ولماذا لا تضغط أمريكا على إسرائيل التي تتحداها أشكره خبر؟..قلت " أمريكا لم تضغط ولن تضغط على إسرائيل التي هي، حسب تعبير رئيس وزرائها الأسبق مناحم بيغن، أكبر حاملة طائرات أمريكية في العالم ! وإذا بدا لأحد أن واشنطن تمارس ضغطاً على إسرائيل، فعليه أن يدرك أن ذلك ليس إلا ضغطاً شكلياً لا يمس الجوهر ولا يمت إليه بصلة حقيقية.

أما الأطراف القادرة على ممارسة الضغط على شهوات السياسة الاسرائيلية الرسمية، فهي ثلاثة:

١- الرأي العام العالمي الذي تحسب له إسرائيل حساباً حقيقياً، رغم الصلف والعنجهية في ردود فعلها على الانتقادات الموجهة إليها من جهات العالم الست.

٢- الدور الفلسطيني، يمارس ضغطاً نضالياً وسياسياً لا تستطيع إسرائيل تجاهله، وأكثر من ذلك فهو هاجس ملحّ في أي طرح إسرائيلي رسمي، وهو تصعيد للضغط العربي، إذا توفر، على الأصعدة كافة.

٣- الضغط الاسرائيلي الذاتي الداخلي، وليس المقصود هنا هو الضغط التقليدي من جانب المعارضة البرلمانية أو حركة سلام الآن أو قوى

اليسار والجماهير العربية فحسب، بل مقصود أيضاً الضغط الناشيء عن تفاوت الطروحات والمواقف في القضايا التفصيلية والتكتيكية داخل أوساط اليمين الحاكم نفسه، فلا يجوز لنا إلا أن نرى التفاوت، مهما يكن دقيقاً وصغيراً، بين مركبات المؤسسة الحاكمة نفسها، ففي المحصلة، أصبح واضحاً وجود فرق بين حزب " شاس " الديني وحزب " المفدال " الديني هو الآخر. كما أن هناك فرقاً بين رئيس الوزراء (الليكودي) وأريك شارون (الليكودي) وإسحق مردخاي (الليكودي) وبين آخرين وسواهم في أوساط اليمين الحاكم نفسه.

صحيح أن الموقف الفلسطيني لا يستطيع الأنتظار حتى ينشأ هنا وهناك تناقض ما، مرحلي، بين هذه الفئة وتلك داخل المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة، لكن من شأن الموقف الفلسطيني أن يكون أكثر دينامية وأجدى، حين يوظف التفاصيل ولا يكتفي بالعموميات، وحين يرى الشروخ والصدوع في الخندق المواجه ويعمل على تعميقها وتوسيعها، مجنداً قدر المستطاع قوى الضغط الداخلي التي أثبتت فعاليتها وجدواها في مراحل سابقة من المواجهة الدامية الباحثة عن مخرج ما نحو شيء من الاستقرار ولو مرحلياً، بما ينسجم مع الهدف الاستراتيجي، هدف الحرية والاستقلال والسلام والتقدم.

المؤرخون الإسرائيليون الجدد وعقلنة التاريخ والسياسة

*أكثرت الأدبيات السياسية والفكرية الاسرائيلية في الآونة الأخيرة من تداول تعبير " المؤرخون الجدد "، ولا تقوم جدّة هؤلاء السادة على أعمارهم بل على أفكارهم. ذلك أن المؤرخين المقصودين هم مجموعة أكاديمية جرؤت على كسر "الطابو" التاريخي وحطمت جملةً من المسلّمات في الفكر التاريخي-السياسي الاسرائيلي واليهودي والصهيوني، استمدت كينونتها من الخلط العشوائي أو المتعمد بين غيبيات دينية توراتية ووقائع وحقائق تاريخية، بصيغة تعزّز الطرح السياسي الصهيوني الديني والعلماني على السواء، والذي يؤكد على حقوق قومية ناهضة على أسس إيمانية غيبية لا تخفى هشاشتها أمام المحك العلمي الصارم. وكنت في مداخلة سابقة قد اعتمدت ما ذهب إليه مؤرخان اسرائيليان " جديدان " من أن هيكل بيت المقدس المسمّى بهيكل سليمان، كان قائماً قبل سليمان بخمسة قرون من الزمن. وأشرتُ في حينه إلى الحملة المعادية التي تعرض لها هذان المؤرخان الجديدان من جانب الأصوليين الدينيين والسياسيين في المجتمع الاسرائيلي واليهودي.

وها هو ذا عالم الآثار البروفيسور عمانوئيل عناتي يستخلص بعد بحث علمي طويل أن الجبل المعروف باسم " جبل سيناء " عند اليهود و " جبل موسى " عند العرب والذي، تلقى عليه النبي موسى عليه السلام ألواح العهد التوراتية، ليس في سيناء على الاطلاق، بل هو في النقب الجنوبي

ويسمى جبل " كركوم " . وعثر البروفيسور عناتي في حفائر الجبل على حجر منحوت على شكل هلال. وكان هذا شعار الإله البابلي "سين" ومنه اشتُقّ الاسم "جبل سيناء".

وكما هو متوقع دائماً فقد تصدى للبروفيسور عناتي زملاء له لا يروقهم تحطيم المسلّمات التي ارتكز عليها، كما أسلفنا، نظام فكري–عقائدي–سياسي متكامل تقوم عليه نظرية "أرض الميعاد" بمجملها.

وفي هذا الإطار فلا ينبغي أن يفوتنا السبق الذي حققه الدكتور كمال الصليبي في بحثه المدهش والصادر في كتاب "التوراه جاءت من جزيرة العرب" والذي أحدث في حينه ضجة كبرى في الوطن العربي وفي الأوساط الأكاديمية العالمية كلها.

إن تحطيم المسلمات ليس هدفاً بحد ذاته، لكن الهدف هو الحقيقة العلمية التاريخية، وعقلنة السياسة وغسل أدمغة البشر من الخرافات والأساطير والغيبيات التي تحاول رفع رأسها من حين لآخر، وتسعى للسيطرة على المجتمعات البشرية، خدمة لأهداف هي كلمات حق قد يراد بها الحق، لكنها كثيراً وغالباً ما لا تؤدي إلا إلى الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

لا يجدّدون لنا شيئاً!

علماء الآثار الاسرائيليون، على أهميتهم، لا يجدّدون لنا شيئاً بشأن القدس، فهي مدينتنا التي نعرفها حجراً حجراً لأننا بنيناها حجراً حجراً، من جدّنا سالم اليبوسي العربي مؤسس المدينة وباني هيكلها إلى يومنا هذا الذي يحاول فيه قطاع الطرق ولصوص الأرض والتاريخ التسلل كالخلايا السرطانية إلى منزل هنا وكهف هناك.

لقد فنّدنا كل الأباطيل والأقاويل المزورة عن تاريخ القدس وأصلها وفصلها، فهي بنتنا ونحن أبناؤها ونحن أجدادها ونحن أحفادها، ونؤمن بأن مفعول القوة، كل قوة، وأية قوة، إلى زوال.. أما مفعول الحق القومي والحقيقة التاريخية فباق وثابت وراسخ إلى أبد الأبد.

مع ذلك فلا بأس في أن يشهد شاهِدٌ من أهله، ولا بأس في النتائج العلمية التي توصل إليها عالمان كبيران من علماء الآثار والتاريخ، هما اليهوديان الاسرائيليان بروفيسور يسرائيل فنكلشتاين وبروفيسور دافيد أوسشكين من جامعة تل أبيب، هذه النتائج التي تؤكد أن هيكل جدنا سالم اليبوسي والذي يسميه إخواننا اليهود بالبيت الأول، قائم قبل حقبة سليمان الملك بأربعة قرون، وهكذا فلا يُعقل أن يكون سليمان الملك قد بنى الهيكل قبل ميلاده بأربعمئة عام بالتمام والكمال.. وبما أن هذا الأكتشاف المؤسس على قواعد البحث العلمي الصحيح والدقيق يتناقض مع معطيات التناخ (التوراة) فمن " الطبيعي " أن تثور ثائرة المتدينين اليهود، ومن " الطبيعي " أيضاً أن ينعتهما الرابي راڤتس بالمشعوذين!!.

وبقدر ما تتأكد عروبة القدس تاريخياً وأرخيولوجياً فإن حُمّى

الاستيطان وهستيريا التهويد تتصاعد وتستشري وتستشرس من جبل أبو غنيم إلى باب العمود إلى برج اللقلق إلى سلوان. ونلاحظ كيف أن الجماعة يمارسون كل الوسائل المتاحة لتزوير المدينة مدينتنا الأصلية والاصيلة. ولأسفنا الشديد فإن مواجهتنا السياسية والاقتصادية والنضالية لا ترقى إلى مستوى مخطط التهويد ولا تشكل تحدياً كافياً لموبقاته.. وباستثناء الصيغ الإنشائية واللجان والبيانات الصادرة عن هذه العربية وتلك العاصمة الاسلامية، فإن الصورة تبدو وكأن قطاً شرساً يقتحم أسداً هرماً بلا أنياب ومخالب، وينشأ الإنطباع بأن القط قادر، فعلاً، على تحقيق "الانجازات".

لوقت غير بعيد، كان لي شرف المشاركة في الدفاع بقصيدتي وبجسدي عن "برج اللقلق" وكان إلى جانبي ومن حولي حشد غفير من إخواني المقادسة، لكنني بالأمس القريب، وبجوار "بيت الشرق" شعرت بالوحدة وبالخيبة حين لم أجد من يشاركني الاحتفال بذكرى النكبة، لا لسبب، سوى أن آليات الاحتلال كشَّرتْ عن أنيابها..

وعلى أية حال فأنا أعرف خميرة شعبي، وأومن أنها خميرة حَيَّة مفعمة بالعنفوان والثقة بالنفس، وأنها قادرة على استعادة نضجها وعافيتها بأسرع مما يتوهم الواهمون.. وكذلك فأنا أعرف أن هيكل سالم اليبوسيّ نهض بين أرضنا وسمائنا قبل سليمان الملك بمئات السنين!

إرفعوا أيديكم عن " صوت الحق والحرية "

من حين لحين، تضع أذرعة السلطة نصب أعينها العشواء هدفاً عربياً ما، وتشنّ عليه حملتها الشعواء.. وأصبح أختلاق عنصر عربي للتحريض عليه ولصرف الأنظار عن موبقات الحكم، نهجاً تقليدياً في الإعلام والسياسة الاسرائيليين.

في هذه الأيام تتعرض مؤسسات الحركة الاسلامية وصحيفة " صوت الحق والحرية " إلى هجوم سافر ومبطّن ومعلن ومُضمر يقوده مكتب مستشارية رئيس الحكومة.. ولأننا في " كل العرب " جرَّبنا على جلودنا كل صنوف التحريض الجائر والاستفزازي من الغريب والقريب، وذقنا مرارة الظلم من كؤوس الخصوم وذوي القربى، فلا يسعنا إلا أن نتصدى لحملات التحريض الظالمة، قابضين على جمرات إيماننا بحرية الانسان وكرامة العقل وشرف الضمير واستقلالية الوعي وحق التعبير الحر عن الذات وحرية الاجتهاد وجدوى التعددية. ومن هنا فإننا نندّد أشدّ التنديد بالحملة التي تتعرض لها صحيفة " صوت الحق والحرية "، بتهمة " التطرف " البائسة والتعيسة، بينما يقوم المتطرفون الحقيقيون من مستوطنين ومحتلّين باقتحام البيوت وإطلاق النار واغتصاب الأرض وتزوير التاريخ أربعاً وعشرين ساعة في اليوم وعلى مدار الأسبوع والشهر والعام، في القدس وسواها من مناطق شعبنا المحتلة. الحرية كل لا يتجزّأ.. ولا انتقائية في الديموقراطية.. ويوم تعرضت " كل العرب " للتحريض الأرعن. قلنا إن الصحف والمنابر العربية الأخرى ليست في مأمن.. وها نحن نكرر اليوم أن التحريض على " صوت الحق والحرية " لا يترك مأمناً لأية وسيلة إعلام عربية أخرى، وسيطال لاحقاً وسائل الإعلام العبرية نفسها إذا هي جرؤت على رفع يدها وصوتها على " المكّارثية " الجديدة، وعلى سياسة " صيد الساحرات " التي تتراجع أحياناً لكنها تطل برأسها البشع من جديد حين يتوفر لها هدف عربي آخر...

لا لقمع الرأي.. نعم للمعرفة.. نعم لحرية التعبير، نعم لحرية الصحافة... وارفعوا أيديكم عن صحيفة " صوت الحق والحرية ".

قمة مؤتمرات الحضيض
حضيض مؤتمرات القمة..

* لا نقلل من شأن العمل الدبلوماسي والتحرك السياسي، أبداً، فنحن أناس عقلانيون، علمانيون، واقعيون، حضاريون، الى آخر القائمة المعروفة من التشخيصات الاعلامية الرائجة، غير أن ما يحدث على الساحة السياسية العربية لا يركب على عقل أو علم أو واقعية أو حضارة. وأصبحت ساحة السياسة العربية أشبه بحظيرة مسيّجة بالحديد والنار، والقطيع المذعور يتدافع ويتلاطم نحو اليمين فاليسار فالأمام فالخلف، وكلاب الراعي الأمريكي (الكاوبوي) تنبحه من هنا فيطير إلى هناك وتنبحه من هناك فيطير إلى هنا، وما زال العمل السياسي العربي مجرد ردود أفعال صغيرة وتافهة وجبانة،ويوماً إثر يوم تنضاف (لا تضاف) إلى قاموسنا السياسي المترهل عبارات هي من قبيل شرّ البليّة من طراز "الإشتباك التفاوضي" على غرار "القصف الاذاعي"، هذا التعبير الحقير الذي سمعناه في الستينيات!

كان أحد شعرائنا قد نعت مؤتمرات القمة بمؤتمرات الحضيض، قبل أعوام عديدة ويبدو أن هذا النعت ما زال صحيحاً بامتياز في أيامنا هذه أيضاً، فعن أية قمة يتحدثون الآن، ما دامت أمريكا تملي جدول الأعمال واسرائيل تحدد المواعيد؟

ولماذا لا تنعقد مؤتمرات الحضيض هذه إلا في مناخات الرعب من هجمة خارجية أو لاستجداء العطف والرحمة من هذه الدولة الغربية او تلك؟ بكلمات أُخرى، لماذا لا تنعقد مؤتمرات الحضيض هذه إلا في الحالات

والظروف السلبية؟

هل عقد حكام هذه الأمة البائسة التعيسة مؤتمر قمة لإعطاء "التضامن العربي" و "الدفاع المشترك" و "الاقتصاد العربي" و "حقوق الانسان" العربي و "المواصلات العربية" و "الزراعة العربية" و "المياه العربية" و "المجتمع العربي" مضموناً حقيقياً خارج الكلام الفارغ والكذب والنفاق والرياء والخديعة والوقيعة؟

يسمونها "مؤتمرات قمة" وهم يدركون في قرارات أنفسهم أنه ما من قمة ولا يحزنون... ويدركون أنهم رهائن وأسرى لدى أصغر موظف في البنتاغون أو في البيت الأسود الأمريكي... ومع ذلك ورغم ذلك فإنهم يتابعون لعبة خداع الذات والضحك على ذقون الجماهير..

لقد كرّسوا تجزئة هذه الأمة إرضاءً لعقدهم الشخصية المرضيّة الصغيرة، وأوصلوا هذه الأمة إلى ما هي عليه من ضعف وهوان، وآن لهم ان يحلّوا عن قفاها، وان يدعوها تسترد أنفاسها وتستعيد وجهها وصوتها ويدها، وأن تعقد هي... لا هُم... مؤتمرات قمتها الشعبية الحقيقية الصادقة والأصيلة والشجاعة والحرة من املاءات الأسياد الأجانب وإغرائهم وإرغائهم وترهيبهم وترغيبهم... آنذاك، وآنذاك فقط يصبح في مقدورنا أن نتفاءل خيراً بمؤتمرات القمة...

أمّا قمم مؤتمرات الحضيض، وحضيض مؤتمرات القمم فلا تعنينا بشيء ولا نرى فيها سوى محاولات ذليلة لتنفيس الغضب القومي العارم والصادق والطاهر على ما نحن فيه من عارٍ قومي وشنار سياسي. وإنا لله وإنّا إليه راجعون.

ليس مجرد كاوبوي أهوج!

* لم يسبق لمسؤول أمريكي أن اندلق على الصوت اليهودي من خلال اسرائيل بمثل ما فعل ويفعل رئيس الكونغرس الحالي ذي الأغلبية الجمهورية، المستر غينغرتش.

لقد تعودنا على ان يخطب المسؤولون الأمريكيون ود اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة، سعياً وراء أصوات الناخبين اليهود هناك.. اما غينغرتش هذا فقد فاق جميع زملائه، وسيكون من الصعب على أي سياسي أمريكي أن يتجاوزه نفاقاً ورياءً وانزلاقاً وانجرافاً وراء اليمين الاسرائيلي.

كان من الممكن الاكتفاء بوضع هذا الشخص في خانة "الكاوبوي الأهوج" أو "المافيونير السياسي" أو "الحثالة التاريخية"، لكن كل هذه الأوصاف تظل ناقصةً وقاصرةً عن تحديد ملامح هذا الشخص المتطفل على وطننا وعلى حياتنا.

هذا الأمريكاني، الذي يمتد تاريخ أية قرية فلسطينية أضعاف أضعاف تاريخ ولاياته المتحدة، يجرؤ على اصدار الأحكام حول تاريخ القدس، مدينتنا، وحول مستقبلها ومصيرها، ويندغم في سياسة بيبي نتنياهو إلى حد التماهي الذي يُسقطه من حيث يدري ولا يدري في ما من شأنه أن يسوء حلفاءه ومضيفيه ويحرجهم! ذلك أنه حين يؤكد الشبه بين الأمتين الأمريكية والاسرائيلية من حيث أنهما أمتا مهاجرين، فإنه يوحي فوراً بحملات إبادة السكان الشرعيين الأصليين وضآلة الرابط التاريخي بين الأرض والمهاجرين إليها.

أكثر من ذلك، فإن هذا الغينغرتش يهاجم وزيرة خارجية بلاده مادلين

أولبرايت ويتهمها بالعمالة للفلسطينيين وهو يعرف أنها يهودية، وبذلك فهو يحرض أبناء جلدتها عليها، وبكلمات أخرى فإنه يحرض اليهود المتطرفين على أولئك الذين يجنحون للسلام مع الفلسطينيين... ومن هنا نستطيع فهم اصطحابه ليهودي أمريكي يشبِّه شمعون بيرس " بالمتعاونين مع النازيين " ، علماً بأن أمريكا بقيادة أشخاص من طراز هذا الغينغرتش هي أقرب بلدان العالم إلى خطر صعود النازية الجديدة. لقد تجاوز هذا العلج الأمريكاني كل حدود العمل السياسي العاقل والمنطقي، وأعلن على الملأ وقوفه إلى جانب العدوان والإحتلال والاستيطان الكولونيالي بتعابير تنضح نفاقاً لليهود وكراهية للعرب. وعليه فإنا ندعو إخواننا العرب في أمريكا إلى تكثيف الجهود ضد اليمين العنصري الديني الفاشي الذي يتسلق أعمدة البيت الأبيض منذراً بسياسة أمريكية أشد عدوانية وأكثر تصلباً مع العرب وقضاياهم القومية.

ومع إدراكنا محدودية نفوذ اللوبي العربي في الولايات المتحدة، فأننا على قناعة بإمكانية توسيع هذا النفوذ وتعميقه، بالعمل المدروس والمبرمج وبالتعاون مع قوى السلام والحق في أمريكا نفسها... أمّا أن تمر استفزازات هذا الغينغرتش بلا رد مساو في القوة ومعاكس في الاتجاه، فذلك أمر ضار للحاضر وخطير على المستقبل.

اقتراح صغير!

* "كلاين" كلمة ألمانية معناها "صغير".. وكلاينر (بالالمانية والانجليزية) تعني "الأصغر".. وكلاينر هو اسم عائلة عضو الكنيست ميخائيل كلاينر، اليميني المعروف.

جرت العادة على أن يقدم أعضاء الكنيست مشاريع القوانين، ومن هذه المشاريع ما هو صغير وما هو كبير وما هو "كلاينر"!

أما أصغر اقتراح في الآونة الأخيرة فهو اقتراح ميخائيل الأصغر (كلاينر) بالغاء اللغة العربية كلغة رسمية في اسرائيل والإكتفاء باللغة العبرية، لغة الدولة اليهودية، وذلك "لتعميق انتماء" العرب للدولة..

ولا يكتفي كلاينر بهذا الاقتراح الكلايني، بل يدعو إلى مطالبة العرب بأداء قسم الولاء للدولة قبل حصولهم على الجنسية.

وحتى لا يُتهم السيد كلاينر بالعنصرية، ظلما وعدوانا، فإنه يؤكد على أن اقتراحه هو في صالح العرب، في نهاية المطاف.. ولا بأس، فالأعمال بالنيات... وانطلاقاً من نيّة السيد كلاينر التي هي في صالح العرب، فإن أي عربي يستطيع تقديم اقتراح استطرادي يقول: بما أن إخواننا اليهود هم أقليّة في الوطن العربي فإننا نقترح عليهم إلغاء اللغة العبرية، التي لا يتكلم بهاجميع يهود العالم، اصلاً، واستبدالها باللغة العربية التي هي أكبر اللغات الساميّة وأوسعها انتشاراً وأبناء عمومتنا اليهود هم أيضاً شعب سامي، وباعتماد اللغة العربية يتحقق مجال أفضل وأوسع للتفاهم بين الأشقاء وأبناء العم ويحلّ السلام ويتمّ الوئام ويعيش الجميع بالثبات والنبات ويخلفون الصبيان والبنات.. ويا دار ما دخلك شرّ!

أما نحن، فلا نرى حاجةً ومبرراً لكل هذا القدر من "حسن النيّة"، وندعو ابن عمنا الخواجا كلاينر وكل من يشاطرونه فكره إلى إحترام اللغة العربية وتعزيز مكانتها في البلاد وفي العالم كله، أسوة بدعوتنا لاحترام اللغة العبرية والأمهرية والانجليزية والسواحلية والألمانية والايديش والتركية والڤيتناميّة والاسبانيّة وكل لغات الكون، فالتعددية اللغوية والثقافية والعرقيّة هي مشيئة ربانيّة ومن شأنها تجميل العالم وإغناء حضاراته شريطة أن تتوفر النوايا الحسنة حقاً وحقيقة، وبضرورة الابتعاد مرة وإلى الأبد عن كلمات الباطل التي يُراد بها الباطل، وكلمات الحق التي يراد بها الباطل، والالتزام بكلمات الحق التي يراد بها الحق ولا شيء سوى الحق!

فنّ التشرذم!

يبدو من حياتنا السياسية والاجتماعية أننا نجحنا في تحويل التشرذم إلى فنّ. وغالباً ما يأخذ التشرذم عندنا صيغة الولدنة والصبيانية. وحين يراقب المرء تصرفات " ذوي الشأن " في أي إطار سياسي أو إجتماعي أو ثقافي، فإنه يلاحظ على الفور تغلُّب النوازع الذاتية الفردية، والتي تبلغ حالة التعقيد السايكولوجي، على البرنامج السياسي أو خطة العمل...

ويتضح لنا، يوماً بعد يوم، أن مفهوم " الجماعية " في العمل ليس سوى لفظة ديكوريّة تلتغي معانيها الجوهرية أمام أي احتكاك بين العصبيّة الذاتية وبين ضرورات العمل الجماعي. وكثيراً ما يجد المرء نفسه إزاء مشهد يشبه كوميديا " الفارْسْ " ، وهو يتتبع التناقض المذهل بين لسان يتقعَّر في الكلام عن " التعددية " ويد تبطش بأبسط مدلولات " التعددية " في الوقت نفسه وبلا رفة هدب!

ولعلّ بين أشد الناس حماساً في الحديث عن " الحوار الحضاري" من هم أشرس الناس وأقربهم إلى الهمجية والبربرية حين يطرح محاورهم فكرة أو يعلن هاجساً أو يصدر نأمةً لا تتفق مع جموحهم الأنويّ.

إن " التقدم " المعنى أهم وأجدى من التقدم " اللفظة " .. و " التخلف " المسلك أخطر وأقسى من التخلف " المفردة " .. ولأسفنا الشديد فإن التقدم اللفظي والتخلف المسلكي هما السمة السائدة ميدانياً في حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية.. وعلى هذه الخلفية القائمة على تراكمات تاريخية معروفة، تبرز حالة التشرذم والانقسامات الأميبيّة في نشاطنا العام الذي سرعان ما يتحول الى فوضى عامة مثقلة بالحقد

والتجريح والعنف الكلامي والجسدي والإحباط والقعود.
نحن نتقن فن التشرذم.. هذه حقيقة.. مؤلمة، ومؤلمة جداً.. لكنها الحقيقة.. وما بقينا متشرذمين حول تشخيص الداء فسنظل متشرذمين في وصف الدواء..
هذا هو الواقع. لكنه ليس قضاءً وقدراً.. ثمة إمكانيات للتغيير. والسؤال هو: كيف نتوصل إلى صيغة خارج التشرذم، تكفل لنا شيئاً من إتقان فن الوحدة؟
هذا هو السؤال..

" الطوشة " العمومية...
وعُقد المقهورين

* " طوشة عمومية "، هو تعبير قديم وشائع في قاموسنا الاجتماعي.
احيانا تسأل شخصا " : " كيف كانت سهرة العرس " ؟
فيجيب: " طوشة عمومية " .. وقد تسأل آخر: " وكيف جرت جلسة المجلس البلدي؟ " فيردّ ساخطاً: " طوشة عمومية " ..
وللطوشة العمومية، عادة، قطبان، فقد تقع بين طائفتين أو عائلتين أو بين محورين في انتخابات المجلس المحلي، وقد تحدث على خلفيات أكثر سخفاً مثل خلاف بين طفلين على بنّورة أو مغامزة عابرة بين ولد وبنت في ساحة المدرسة.
وقد يسمع المرء بوقوع طوشة عمومية في بلدة فيسأل الرائحين والغادين:شو السّيرة؟ وسرعان ما يأتي الجواب: علمي علمك.. ما حدا عارف.. ناس تقول هيك وناس تقول مش هيك. والله أعلم.
والطوشة العمومية ظاهرة اجتماعية لا يمكن إلا أن تتفشّى في المجتمعات القبليَّة والمقهورة. ونحن ننتمي إلى مجتمع قبلي ومقهور قومياً واجتماعياً، ولم يحسم بعد الصراع في مجتمعنا بين مفاهيم الحداثة السياسية-الاجتماعية، ومفاهيم التعصب الأعمى للانتماءات الأَوّليّة الصغيرة المحكومة بعقليات بدائية متخلفة.
وإلى جانب الضيق والتأفُّف من تجليّات التخلف، فلا بد من ملاحظة التحوُّل الجنينيّ في التعامل مع الطوشات العمومية في عدد من مدننا وقرانا، وهو تحوّل إيجابي برز في الرامة والبعنة وسخنين بشكل

خاص، حيث اتفقت أغلبية الناس على حصر الخلافات في أشخاص معدودين هم العناصر المباشرة في الصراع فلم يعد مقبولاً في الرامة، مثلاً، الادعاء بوقوع طوشة عمومية "بين النصارى والدروز" لمجرد اشتباك شابين طائشين على أولوية العبور بسيّارة مجنونة في شارع ضيّق. وأصبح تحديد الهوية الشخصية للطرفين المتشاجرين أمراً ضرورياً.

وأسعدنا جداً ان اشقاءَنا في البعنة وفي سخنين رفضوا في الأحداث الأخيرة تعميم الخلافات وأصرّوا على تسمية الأفراد المعنيين بغضّ النظر عن حمائلهم، والتي تربطها علاقات نسب وجوار وصداقة وألفة ومحبة.

وإلى جانب الإجراءات القانونية، التي من المفترض أن تمارسها السلطة المركزية، فلا بأس في تشجيع أسلوب " جاهات الصلح " التي من شأنها تهدئة الخواطر وحصر الشرّ، حتى إذا هي لم توفَق دائماً في فض الخلاف الأساسي. وظاهرة " جاهات الصلح " هذه هي الأخرى دليل على أن البنية الاجتماعيةالقديمة ما زالت متماسكة وفاعلة ومؤثّرة.

لسنا من السذاجة بحيث نقارن مجتمعنا المحكوم بالقمع والرواسب بأحد المجتمعات السكندينافية، لكننا ملزمون بمواصلة الحلم والعمل، في آن، ضد بؤر القمع والتخلف، ومن أجل انتشال هذا المجتمع، مجتمعنا المباشر، من وهدة الصراعات الجاهلة وغير المبررة، طموحاً إلى يوم نتمكّن فيه من محو تعبير "الطوشة العمومية" من قاموسنا الاجتماعي، مرة والى الأبد.

من هم " الجواسيس " ؟

* قامت قيامة الاعلام الاسرائيلي، أمس الاول، في اعقاب "الكشف" الصحفي الذي عرضه روني شاكيد وتسقي زينغر في "يديعوت احرونوت" بصورة دراماتيكية مهيبة رهيبة!

يقول هذا الكشف الصحفي ان الفلسطينيين "يتجسسون" على المستعمرات اليهودية في المناطق المحتلة منذ العام ١٩٦٧، ولضرب عصفورين بحجر واحد فإن الصحفيين النشيطين يصوران "بيت الشرق" المقدسي "وكراً للجاسوسية" الفلسطينية على المستعمرات والمستعمرين.

بعد قراءة التقرير المستفيض يخلص المرء الى ان كل ما فعله المختصون الفلسطينيون هو انهم وثّقوا بالكلمة وبالصورة لعملية التصعيد الاستيطاني المناقض حتى لاتفاقيات أوسلو التعيسة.

وبما أن المفاوض الفلسطيني مطالب باعتماد الأدلة الدامغة في الحوار مع ندّه الاسرائيلي، فمن الطبيعي ان يمارس هذا المفاوض أسلوباً علمياً وثائقياً مدعوماً بالرقم والكلمة والصورة للرد على ذرائع الجانب الاسرائيلي ولدحضها بالدليل القاطع الجامع.

هذه الندّية لا تروق طاقم المماطلات الاسرائيلي، فهو يريد الذهاب الى مائدة المفاوضات بالخرائط والوثائق والأرقام والصور بينما يأتي المفاوض الفلسطيني مجرداً من الأدلة، مجرداً من أي شيء (سوى ثيابه- في هذه المرحلة!!).

وما دام الشيء بالشيء يُذكر، فلا بدّ من تذكير الإعلام الاسرائيلي "بالمناطر" التي أقيمت وتقام حول قرانا ومدننا لمراقبة تحركاتنا

وسكناتنا في ما تبقى لنا من أرض في الجليل والكرمل والمثلث والنقب. ويستطيعون من هذه "المناظر" مراقبة غرف نومنا. ويوم رفعنا صوت الاحتجاج قيل لنا بكل صلف ووقاحة إن هذه المناظر "ضرورية" لمنع "اعتدائنا" على ارض "الدولة"!

إذن، فلا يجوز في عرف هؤلاء ان يهتم أهل الوطن بمصير وطنهم، اما القادمون الجدد من جهات العالم الست فلهم الحق، كل الحق في ملاحقة أنفاسنا ومتابعة خطانا ورصد حركاتنا وتسجيل سكناتنا، على مدار الساعة وفي كل بقعة من بقاع وطننا.

أجل، ثمة جاسوسية في الأمر.. لكن من هم الجواسيس؟

نخيلُنا.. وعجزهم الجنسي!

* يوم تواترت الأنباء عن قيام مجهولين في اسرائيل بإحراق اشجار النخيل، فقد تبادر الى ذهننا المشدود كوتر ان مرتكبي هذه الفعلة النكراء لابد ان يكونوا من المتطرفين اليهود الذين لا يروقهم انتصاب شجرة النخيل العربية العريقة في ساحات مدنهم ومستوطناتهم المستحدثة.
شعرنا بشيء من الحزن، لإمكانية أن يتدهور العقل البشري الى درك كهذا.
وفجأة، يتضح ان القصة "أكثر تعقيداً" مما بدا لنا، فها نحن نقرأ ونسمع ونشاهد ظاهرة جديدة تتجاوز الصراع القومي والسياسي الى حالة من التعقيد والهلوسة الجنسيين.
والقصة وما فيها ان بعض الشبان العاجزين جنسياً يحقّقون الاكتفاء ويبلغون النشوة وهم يشاهدون شجرة النخيل المحترقة تحت رذاذ المطر، وتطاير الشرر الأزرق والأحمر والأصفر من انتصابها الملتف باللهب.
لقد عرفنا في حياتنا المكتظة شاعرة أعلنت أنها "تزوجت نخيل العراق".. وعرفنا شاعراً عقد قرانه على نخلة.. لكنّ بين هذه وبين إحراق النخيل لبلوغ الأورغازما، فرقاً كبيراً وخطيراً، فمتعة النار هي حالة مرضية يسمونها "فيرومانيا" أو جنون النار أو "نارمانيا" مادامت كلمة "مانيا" اللاتينية بقدر ما نعلم تعني حالة الجنون أو ما يشبه الجنون، وهي حالة مرضية بدون شك.
من هنا نستطيع فهم التصرف النيروني بإحراق روما لاستلهام الموسيقى.. ومن هنا أيضاً نفهم حالات مشعلي الحرائق الذين دوّخوا المطافىء في الولايات المتحدة.
الأمر المقلق في حالة العجز الجنسي في بلادنا هو ما يمكن ان يقدم عليه هؤلاء المرضى في حالة انتهاء النخيل، القليل أصلاً في بلادنا!
بصراحة، على كل واحد منا ان يدير باله على نخلته وأن يدير باله على حاله من كل الاتجاهات.. وقد أعذر من أنذر!!

ألنهضة... والجهضة

*ألنهضة (תקומה) هو المسلسل المعروض هذه الأيام على القناة الأولى من التلفزيون الاسرائيلي، بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنجاز المشروع الصهيوني بإقامة دولة اليهود على أرض فلسطين.

وأثارت الحلقة المتعلقة بالجماهير العربية الباقية على أرض الآباء والأجداد ردود فعل شتّى. فمن المشاهدين من بكى ومنهم من ضحك ومنهم من صفق لمشهد ومنهم من بصق على مشهد آخر.

وتنوعت ردود الفعل وتفاوتت بين العرب واليهود سواء بسواء، فمن اليهود من اعتبر هذه الحلقة "فيلما دعائياً" فلسطينياً ومنهم من اعتبرها اعترافاً بما لا يجوز الاعتراف به، ومنهم من اعتبرها تبرئة ذمَّة.

والأمر المؤكد، هو أنه بمقدار ما يكشف هذا المسلسل من عوامل النهضة الاسرائيلية فإنه يُسفر في الوقت نفسه عن عوامل الجهضة العربية على مستوى القيادات والزعامات التي واكبت المأساة الفلسطينية واسهمت في وقوع النكبة وتواتر مضاعفاتها.

من مضاعفات النكبة مثلاً ما شاهدناه في هذه الحلقة من تدفق ستين ألفاً من جميع الطوائف العربية على مكاتب التطوع للجيش الاسرائيلي في العام ١٩٥٤، أي قبل فرض قانون التجنيد الإجباري على العرب الدروز في العام ١٩٥٦، يوم كان تعداد عرب فلسطين من ابناء الطائفة الدرزية لا يتجاوز الخمسة عشر ألفاً.

وبقدر ما نرفض تبرير فرض التجنيد الاجباري على العرب الفلسطينيين الدروز، تحت أي ظرف من الظروف، فإننا نرفض في الوقت نفسه، وبالقوة ذاتها، سموم الطائفيين الصغار والكبار، الذين عوضاً عن

التضامن مع أشقائهم الدروز في محنتهم الدموية، وعوضاً عن التعاطف مع سجناء الضمير من ابناء معروف الذين تحدّوا القانون الجائر وما زالو قابعين في السجون وينضم إليهم من وقت لآخر مزيد من اخوتهم الرافضين، فقد راح الطائفيون الصغار والكبار ينفثون سموم الحقد والشماتة بأهلهم، لحمهم ودمهم، الذين وقعوا ضحية للتآمر الكبير على فلسطين كلها وللخيانة الكبرى التي ضلع فيها ملوك ورؤساء وقادة جيوش وأمراء وجنرالات وإقاطعيون ممن ترافقهم الى يوم القيامة لعنة العرب والفلسطينيين ولعنة شاعرنا الكبير المغفور له عبد الكريم الكرمي "أبو سلمى" صاحب العصماء الخالدة:

أنشُرْ على لهب القصيد

شكوى العبيد إلى العبيد

وما لم نتعامل مع المأساة العَربية في فلسطين بمنظور قومي صادق حرّ وشجاع وتظيف فستظل ڤيروسات الطائفية والعشائرية والإقليمية سبباً كافياً لهيمنة السيدة أولبرايت على هذه الأمة من محيطها إلى خليجها، والذي يفهم يفهم، والذي لا يفهم عمره لا فهم!

ومن مضاعفات النكبة– الجهضة التي شاهدناها في هذه الحلقة، تلك "الصلحة" القسرية التي فرضت على أهلنا، لحمنا ودمنا، في قريتنا المنكوبة كفرقاسم.. وبدل توجيه الشتائم واللوم والتحقير لأولئك الذين قدموا اللحم والأرز للجزارين في تلك "الصلحة" المهينة حقاً، فنحن مطالبون بالارتقاء بمشاعرنا وبأفكارنا إلى مستوى الحدث التاريخي في الظرف العيني، وإلا فإننا نواصل إلقاء اللوم على المرأة المغتصبة لا على المجرم المغتصب، ولا على الحالة التاريخية التي أدت أصلاً الى وقوع جريمة–الاغتصاب!

ومن مشاهد "الجهضة" في مسلسل "النهضة"...ما رأيناه من مشاركة "زعماء" عرب من الجليل في احتفال تدشين مدينة كرميئيل

التي بنيت بقوة المصادرة المسلحة على أراضي القرى التي "انتمى" اليها هؤلاء "الزعماء" الأفندية!

وهكذا بالنسبة لقضية "الحكم العسكري"، وأدلة "الأسرلة"، وما شابهها من قضايا يعرفها مجايلونا ومن هم أكبر منا سناً أو من هم أصغر سناً، على امتداد خمسة عقود مثقلة بالمآسي والإجهاضات والإحباطات، غير أنها لم تخل أيضا من الأيدي الشجاعة والألسن الحرة والمواقف الأصيلة الصادقة، التي كانت ولا تزال حارساً أميناً لقضية الشعب والوطن ولحلم أجيالنا القادمة، والتي لن ترضى بأقل من الحرية والمساواة والكرامة القومية والحق التاريخي.

لعنة الفراعنة.. لعنة العرب

* عرفت أوساط علماء الآثار تعبير "لعنة الفراعنة" في أعقاب ظاهرة متكررة، أسفرت عن موت كل من لمس مومياء فرعونية، وتوصل العلماء الى قناعة بأن هناك مواد سامة قاتلة في حنوط المومياءات، تتسرب الى جسد من يلمسها وتؤدي الى وفاته.

تذكرنا "لعنة الفراعنة" هذه قبل ايام عبر ما نشر في بعض وسائل الاعلام المصرية، بعد فوز منتخبنا العربي المصري بكأس بطولة الأمم الإفريقية في كرة القدم.

لقد فرح العرب، كل العرب، بهذا النصر الطالع من زمن الهزائم والخيبات. ولم يكن من رجاحة العقل ان تهرع بعض وسائل الاعلام، وأكرر (بعض) وسائل الاعلام، إلى قبور الفراعنة ولعناتهم لتتباهى بنصر الفراعنة على "أولاد" الافارقة، وهؤلاء "الأولاد" هم شعب نلسون منديلا أيضاً، والتعالي عليهم غير مبرر في أي حساب.

إن العودة الى "الفرعونية" في بعض وسائل الاعلام في القطر العربي المصري، مثلها مثل العودة الى "الفينيقية" في القطر العربي اللبناني "والكنعانية" في القطر العربي الفلسطيني "والاشورية" في القطر العربي العراقي "والسريانية" في القطر العربي السوري و"البربرية" في القطر العربي الجزائري و"الزنجية" في القطر العربي السوداني وهلمجرّا، نحو جميع النزعات الاقليمية المريضة في الوطن العربي الكبير.

وحتى لايساء فهمنا فنحن نعتز بإنجازات جميع الحضارات السابقة في الوطن العربي، لكننا لانقبل بظاهرة التهرب من "العروبة" رغم

هذا الزمن الساقط وهذا الوقت التعيس.

يقيناً أن النزعات الاقليمية والطائفية والعشائرية والقبلية هي المادة السامة في حنوطنا التاريخي..وهي "لعنة العرب" في عصرهم الذي يريد ان يكون حديثاً وينبغي ان يكون حديثاً. ويستطيع أن يكون حديثاً! لا يعقل أبداً أن تستمر اللعبة المميتة، لعبة إزدواجية الانتماء، وحتى لا يتصدى لنا شاطر أو متشاطر فنحن ندرك الفرق بين الازدواجية وبين التعددية. الإزدواجية عربة يشدها حصانان باتجاهين متناقضين. أما التعددية فهي العربة التي تشدها الخيول مجتمعة، باتجاه واحد، على الصراط المستقيم.

واضح؟!

وعلى أية حال فهي فرصة لتكرار التهنئة بالنصر المؤزر، الذي حققه فريقنا، منتخبنا العربي المصري، الذي واكبناه وصلينا من أجله، ونرجو له تحقيق المزيد من الانتصارات، التي تشكل إسهاماً مرموقاً في تجسيد حلم الأمة بالنصر على عوامل الظلم والحرمان والتشتت، واسترداد مكانها المناسب والمشروع تحت شمس الله وبين شعوب الأرض في كتابة الحياة الراهنة والتاريخ القادم.

إنهم يقتلون الأمل

الايرلنديون، لا يقرأون صحيفة " كل العرب "، لذلك فلن تبلغهم صرخة الألم هذه، التي نطلقها من هنا، من الناصرة العربية الفصحى.. رغم ذلك، لا ينقصنا الأمل بأن يكون في ايرلندة نفسها من يطلق هذه الصرخة بلغة القوم هناك.

انباء الاحتراب الطائفي بين الكاثوليك والبروتستانت في ذلك البلد المنكوب بالحقد الطائفي الدموي الأعمى، ليست جديدة علينا وعلى العالم، غير أن النبأ الأخير الذي وصلنا من هناك يحمل مغزىً استثنائياً في مناخ العنف والهلاك والدمار.. يقول النبأ إن شاباً كاثوليكياً وشاباً بروتستانتياً تمكنا من حماية صداقتهما التي بدأت منذ الطفولة، من سموم التطرف والبغضاء المنتشرة في فضاء وطنهما المشترك ومجتمعهما الممزق.. وأصر الشابان على حراسة صداقة الطفولة تحت أي ظرف يعيشه شعبهما.. وقبل أيام بينما كان الشابان الصديقان جالسين في أحد المقاهي يتحدثان في شؤونهما الشخصية والعامة، انقضت عليهما يد الغدر وأطلقت على صدريهما الرصاص، ثم اختفت بومضة برق في ليلة شتائية معتمة، مخلّفة وراءها جثتين يافعتين جسّدَتا أملاً واحداً، أملاً بالحياة الحرة الكريمة النظيفة والشريفة على أرض مشتركة من وطن مشترك تحت سماء مشتركة.

لقد شاهدنا والدة أحد الشابين المغدورين وهي تستقبل المعزّين، عبر إحدى الفضائيات التلفزيونية، ولاحظنا أن الصمت والدموع والذهول شكلت لغة المخاطبة الوحيدة في لقاء التعزية.. وبما أن الصمت والدموع والذهول هي تعابير من لغة كونية يتقنها البشر في كل مكان، فقد فهمنا معنى الوجع الإنساني الطالع من مأساة أشعلتها جريمة همجية ارتكبها أولئك الذين يكرهون الحب ويمقتون الأخوّة ويقتلون الأمل..

ولا يقرأ الإرلنديون صحيفة " كل العرب "، ولا يعرفون اللغة العربية، فهل قرأوا دموع ثاكل من أمهاتهم كل " ذنبها " أنها ربّت ابنها على المحبة والألفة والأخوة والوفاء؟

الفهرس

قمة مؤتمرات الحضيض

